طابقان

في عدرا العمالية

إبداعات شابّة

(٦)

رئيس مجلس الإدارة
محمد الأحمد
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. ثائر زين الدين
المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكتاب

رئيس التحرير
نذير جعفر

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

صفوان إبراهيم

طابقان في عدرا العمالية

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

إبداعات شابَّة

العـدد (٦)

٢٠١٧م

طابقان في عدرا العمالية: رواية / صفوان إبراهيم.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.- ٢٦٤ص؛ ٢٠ سم.
(إبداعات شابَّة؛ العدد٦)

١- ٨١٣.٠٣ إ ب ر ط   ٢- ٨١٣.٠٠٩٦٥١ إ ب ر ط
٣- العنوان   ٤- إبراهيم   ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الإهداء

إلى السوريين العظماء الذين يحيون حياة الشرفاء

وحين الرحيل يرحلون شهداء (مثلك يا أخي حيان).

إلى عائلات أبطال الجيش العربي السوري

(أمهات وزوجات وإخوة وأولاد).

إلى كلّ من يجد في إحدى شخصيات هذه الرواية شبهاً له.

في زمنٍ ما... ما عدتُ أذكر إذا ما كان قريباً أو بعيداً... زمن كان مُقتطعاً من أزمنة الجنة وموهوباً لبلاد تدعى سورية... بلاد نعمت بما لم تنعم به غيرها من الدفء والمحبة والتنوّع والحضارة الممتدة إلى ما قبل معرفة العالم أجمع شيئاً اسمه القلم... في سورية كنا نئام وملء أعيننا صورة الشمس القادمة بصبحها الجميل، نشقى في البحث عن فقيرٍ نُعينه على فقره، ونوزع ابتساماتنا بوجه أيّ غريبٍ سائحاً كان أم عابر سبيل أم غير ذلك... نهتم بأخبار العالم (طرائفه، غرائبه، اختراعاته، مونديالاته الكروية، آخر إصدارات الشركات العالمية من الألبسة والموضة، وماركات السيارات، وآخر التقنيات المُطبّقة على أجهزة الكمبيوتر والهواتف المحمولة...).

في سورية كنا نقضي أيام العطل قصيرها في الزيارات والسيران، وطويلها في الرحلات إلى مواقع حضاراتٍ متلاحقةٍ تدّل عليها الآثار العريقة عراقة الألفة بين مكونات الشعب

السوري. كنا نرى فلسطين مركز العالم، والسياسة التي كانت أكلنا وشربنا هي كلّ ما يُقارب أو يلامس قضيتها العادلة. في سورية كان العامل أخاً، والفلاح أخاً، وسائق سيارة الأجرة أخاً، وصاحب الثروة أخاً، وقمة الأخوة اعتبار الجار أخاً، له علينا احترام جيرته، ومن حقنا مبادلته بالمثل بغضِّ النظر عمّا تكون عليه حالته المادية والعملية، وأيّاً تكون قوميته أو حتى جنسيته. بيته بيتنا وأولاده أولادنا وكلّ ما يصيبه يُصيبنا، في هذا الزمن بالتحديد كان عمري الزمني خمسة أعوام أو أكثر بقليل وعمري الحضاري ١٩٨٦ عاماً من ولادة سيدنا المسيح (ع)، و١٤٠٧عاماً من هجرة سيدنا محمد (ص).

كنت الولد الأكبر لعائلةٍ مكونةٍ من أربعة أفراد أب وأم وأنا وأخي الأصغر صاحب السنوات الثلاث.

أذكر جيداً اللحظة التي توقفت فيها سيارةٌ شحنتْ أمتعتنا من اللاذقية إلى مدينة عدرا العُمّاليّة، هناك وأمام بنايةٍ مؤلفةٍ من خمسة طوابق، تدفقَ الجيران من كلّ حدبٍ وصوب لمساعدة والديّ المتعبين في نقل الأمتعة ووضعها في مكانها المناسب في شقتنا المكونة من غرفتين وصالون كبير في الطابق الثالث المطلّ على الساحة الرئيسة في المدينة، وفي أقل من ثلاث ساعات بدا بيتنا وكأنّه مسكونٌ منذ سنواتٍ عدّة! تفاءل والداي بهذه الخطوة العظيمة. وأذكر جيداً حديثهما لا بل أحاديثهما الكثيرة في مدح هذه الظاهرة التعاونية، التي أسست لعلاقاتٍ طيبة مع كلّ الجيران بدءاً من الآنسة الصغيرة جنان صاحبة صيدلية جنان مروراً بالسيد جلال صاحب محل السمانة الذي كان مرآتي إلى خارج المنزل، ومنه ومن محله تعرفت إلى العالم الخارجي المحيط بي، وبأولاد الحارة حيث نلتقي لشراء الأنواع الكثيرة من العلكة

والبسكويت. وعبر موقع دكانه تعرفت إلى كلّ الأماكن والاتجاهات (الفرن في الشارع الخلفي، والمؤسسة الاستهلاكية شماله بخمسين متراً، والمكتبة، ومحل إصلاح الأدوات الكهربائية والحلاق و...) هذا إلى معرفتنا بجيراننا قاطنيّ الطابق الثاني في الشقة التي تقع تحتنا مباشرةً، وهذا كان السبب الرئيس في تعرفنا إليهم بعد أقل من عشرين يوماً من إقامتنا الجديدة حيث زارنا صاحبها مُعرّفاً عن نفسه بـ (أبي الوليد) جاركم صاحب الشقة التي تحتكم تماماً، أنا من فتح له الباب، ظننته من جملة المباركين بالسكن الجديد إلا أنه على ما يبدو جاءنا بغرضٍ ما غير الذي ظنناه جميعاً، لم أفهم طبيعة حديثه ولم أحاول أنْ أدخل نفسي في موضوعٍ لم أعرف معنى الكلمات المُدارة عنه (بلاط، مواسير، تسريب، سمكري، صحية) كلّ ما عرفته إنه دخل واجماً وخرج باسماً متشكراً! لكن على ماذا؟ وكيف؟!

بعد فترةٍ تعرّفت إلى ولده وليد، كلانا كان يشتري الرز وأغلب الظن أنّ والدته ستصنع منه حلوى الرز بحليب التي ستصنعها أمي. لأنّ أم نائل وهي السيدة المشهورة بحبها للأطفال، التي تتعهد بتوزيع حليب بقراتها كانت قد خصصت

يوم الخميس من كلّ أسبوع لرفد بنايتنا، كلّ عائلة بأربعة كيلو حليب (ولا يثنيها عن ذلك إلا الشديد القوي، وخاصةً العائلات المكونة من أطفالٍ بعمرنا وما دون)... جملتان أسمعهما كلّ مرّة حتى حفظتهما عن ظهر قلب.

أمي كانت ترفض استلام الحليب من دون دخول أم نائل وولدها الكسول صاحب الشعر الأحمر إلى البيت، أنا ألعب معه بألعابي التي تسحره وتسحر عينيه، وهي تحتسي مع أمي فنجان القهوة وتتزود ببعض الألبسة والأحذية التي لا نستخدمها وأغلبها أفرولات و(جزمات) استلمها أبي من المعمل ولكن لا يستعملها كونه مهندساً، وفي حال التقى بها صباحاً أثناء خروجه من المدخل. فإنه يرفدها بثمن الحليب وربما ضعف ثمنه حباً وكرامةً بأدائها وصدقها في موعد الحليب وفي نقاء الحليب من أيّ غشٍ محتمل، وربما لتنفيذها كلّ وصاياه وطلباته من اللبنة والزبدة والجبنة!

بعد ساعتين من التقائي بوليد زارنا برفقة والدته وهي تحمل معها صحناً (زبدية) ممتلئة رزاً بالحليب إلا أنّ أمي

رفضت أخذها؛ لأنّ طبختها الشهية ما زالت ساخنة ولذلك بقي صحنها المُغطى على الطاولة. واستغرقت الجارتان بأحاديث جانبية بصحبة فنجان القهوة بالهال ذي الرائحة الخلابة بينما اختفيت أنا ووليد مع عشرات الألعاب في غرفتي الصغيرة، وعلى الغداء عرفتُ من أمي التي كانت تسرد لأبي تفاصيل يومها إنّ المرأة طيبة ومحترمة وموظفة أيضاً. وإنها عرضت عليها إبقاء وليد وأخته عندنا ريثما تعود هي من وظيفتها، أنا كنت سعيداً جداً بهذا الاقتراح وسعيداً أكثر بموافقة أبي وإنْ جاءت على مضض! ومن يومها تكونت بيني وبين وليد صداقةٌ شبيهةٌ بالصداقة المكونة بين أخي حيّان وأخته هديل ذات السنوات الثلاث أيضاً، كانت صداقتنا بهم كأطفال وكعائلة أكثر من رائعة إنها مقدسة وصدقوني رغم صغر سني كنت أعرف ما معنى كلمة مقدسة!

من حظنا نحن أبناء الجيل الذي وُلدَ في مطلع الثمانينيات أننا وصلنا إلى مستوى الإدراك الخارجي، في حقبة اجتماعية خالية تماماً من بعض المصطلحات (حرب، اغتيال، جريمة تطرّف سياسي، تخريب إرهاب)، وربما أحسن المجتمع آنذاك بمسح

ذاكرته، وتصنيف السِّيَر التي تتناول أحداث الفترة السابقة لهذه الحقبة بالمحرَّمات. لم نكن نعي معنى الأمن كمصطلحٍ، ولكننا عشناه واقعاً ملموساً في كلّ شيء: من سفرنا الليلي على الطرق التي تربط المحافظات ببعضها! إلى قبول أهلنا العمل في أرياف محافظاتٍ بعيدة عن مكان إقامتنا! واصطحابنا ضمن عائلاتهم إلى المساكن الملحقة بمقرات العمل! بل وتفوقت هذه الحقبة على ذاتها بعامل الأمان، حتى تجاسر بعض الأهالي في أكثر من مناسبة على إرسال صغارهم من محافظة إلى أخرى، شرط تأمين من ينتظرهم في موقف الحافلات (كراج البولمان). لم تختلف أوقات اليوم عن بعضها كثيراً، لقد تآخى الليل مع النهار، لدرجةٍ زالت فيها المزايا، وبات الاختلاف اللوني هو الفارق الوحيد بينهما، حياة اليوم أينما اتجهنا وأينما أقمنا، حياتان ممتلئتان مودة وبراءة عملية أثناء النهار، واجتماعية رحبة حتى ما بعد منتصف الليل، كلّ شيء بلا استثناء يقول لك هنا سورية، أو هذه سورية.

غريبةٌ جداً طبيعة الأحداث التي تواكب العمر الصغير، غريبةٌ في رسوخها واحتجازها لمساحةٍ واسعة من محيط

الذاكرة، وأنا قادرٌ في هذه اللحظات أنْ أسرد أبسط تفاصيلها وكأنني أرى فيلماً طويلاً بكلّ مضامينه من الأبطال والكومبارس والنص والديكور المتمثل بالشوارع التي تعرّفت عليها خطوة بخطوة مع وليد، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما كانت أمي ترسلني لشراء خافضات الحرارة أو أدوية الالتهاب لمداواة بلعوم حيّان الذي يتحسس من أبسط تغيرٍ يحدثه الجو! كنت في هذه اللحظات أشعر بأنني أصبحت رجلاً فأرتدي ثيابي على عجلٍ وأحمل الورقة التي دوَّنت فيها أمي اسم الدواء بيد وباليد الأخرى ثمنها وأستأذن أم وليد في اصطحاب بكرها معي، وما زلت أذكر معاملة الصيدلانية لنا حيث تسمح لنا بتخطي الحاجز الخشبي لتُسلم علينا وتقبّلنا وتمنح كلاً منا بعض البسكويت المدّعم بالفيتامينات! وفوق ذلك تسمح لنا بالمعاينة الممتعة لأصناف الدواء كافة ذات العلب الكرتونية الملونة، وخاصة تلك التي تحمل صوراً للأطفال، أو صوراً للأجهزة المصابة كجهاز التنفس والأنف والبلعوم، أو الجهاز الهضمي بتلافيفه الغليظة والدقيقة وغيرهما، الآنسة جنان كانت رحبة الصدر لا تملُّ من أسئلتنا الطفوليّة حيث ننسى

أنفسنا في ضيافتها مُستغرقين بكلّ قدراتنا الفكرية في إجاباتها التوضيحية ونصائحها الطبية، وحتى الأسئلة التي لا تخص الأدوية كأسئلة وليد المعتادة حول اللوحات المعلقة على بعض الرفوف كتلك التي كُتبَ عليها قال المسيح (ع): (دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله) أو اللوحة التي كُتب عليها (أنتم ملح الأرض ولكن إذا فسدَ الملح فبأيِّ شيء يُملَّح؟).

إجابات الآنسة جنان عن أسئلة وليد كانت بوابتنا لمعرفة فضاء ديني صغير يتناسب مع عمرنا، فعرفنا من هو المسيح (ع)؟ ولماذا يحب الأطفال؟ وما معنى ملكوت الله؟ ولماذا شبّه البشر بالملح؟ ولماذا كان حريصاً على نقاوة هذا الملح؟ وغيرها من الإجابات التي توسع أفق الإدراك العقلي لعقولنا النامية على مهل.

أبي اعتاد على رؤية وليد وهديل في بيتنا حتى إنّه يتفقدهما على وجبة الغداء ذات الموعد المقدّس الذي يسبق موعد قدوم والديهما بساعة، ويوماً بعد يوم دخلت العائلتان بحالةٍ شبه

موحدّة، وأصبح السيد أبو وليد الصديق الأول لوالدي ولا بد من الاجتماع به بشكل يومي ولمدّة ساعتين على الأقل للعب بورق الشّدة (لعبة الطرنيب) كشريكٍ أساسي ضد أيّ فردين من أفراد البناية. أمّا الوالدتان فطوّرتا علاقتهما إلى درجةٍ صار فيها تبادل صحنين من وجبة الغداء أمرٌ لا بدّ منه، ولا أنسى طبعاً الحديث عن حالة الانتشاء الطفولي لحيّان وهديل وكأنّهما في دنيا لا علاقة لها بدنيانا لا من قريبٍ ولا من بعيد، وكم من مرّةٍ أفاق فيها حيّان ليلاً باكياً على هديل أو من هديل! وأنا أُؤيد بكاءه فهي الطفلة الوحيدة التي تعرّف إليها في عالمنا الجديد (مدينة عدرا العُمّاليّة) ولقد آلفها إلى درجةٍ صار فيها مطواعاً بمجرد تهديده بأننا لن نسمح لهديل بالقدوم إلى بيتنا! تقولب معها بقالبٍ واحد، يأكل إذا أكلت، وينام إذا نامت، وعندنا الكثير من الصور لهما وهما نائمان بوضعياتٍ مختلفةٍ ومضحكةٍ جداً على سريره الممتلئ بالألعاب.

هذا كان الجزء الخاص لبداية حياتنا الجديدة، تلك الحياة التي رسمت خطوط مستقبلها من تآلف عائلتين تسكنان

طابقين في بناية من أحلى الأبنية الموجودة في مدينة عدرا العُمّاليّة، الجو الخاص تحوّل تدريجياً إلى جوٍ مفتوح وذلك لسببين: الأول وأهمها دخولي مع وليد إلى المدرسة الابتدائية (الصف الأول)، والثاني استلام والدي المهندس رئاسة قسمٍ كبير في معمل عدرا لصناعة الإسمنت وهو القسم ذاته الذي يعمل فيه أبو وليد محاسباً مالياً، وبالتالي فإن والدي كان يصطحبنا معه إلى المدرسة صباحاً ويصطحب صديقه إلى المعمل وفي أكثر الأحيان يعود معه إن لم يتأخر والدي كما جرت عادته منذ استلامه رئاسة القسم.

في المدرسة ظنّ المدرسون قبل الطلاب أننا شقيقان، ليس لوجود شبهٍ ما بلون البشرة السمراء، وإنما لانفرادنا بألبسةٍ وأحذيةٍ متشابهة إضافةً إلى جلوسنا ولعبنا معاً.

نظام الحياة يتغير بتوسع مجال الحركة وزيادة الاهتمامات، وليس عبثاً أنّ ذاكرتي قوية فأنا دقيقٌ جداً في حفظ كلّ دروسي وأسماء التلاميذ المشاركين معي، ولقد لفتت ذاكرتي معلِّم صفي عبد السلام، وهو شابٌ وسيمٌ وطيب القلب

ومهتمٌ جداً بتلاميذه، وكم من مرةٍ أمدّنا فيها بالكثير من القصص الطفوليّة التي تتحدث عن العلماء والمخترعين، وبما أنني في هذه المرحلة لم أكن متمكناً من القراءة بشكلٍ سليم لجأت إلى والدتي لتقرأ لي قبل النوم ظناً منها ومني بأنّ هذه القصص ستساعد في تسريع غفوتي ولكن ما كان يحدث عكس ذلك تماماً، إذ إنني كنت أفكر طويلاً بعد أنْ تُقبّلني أمي وتُغلق الباب خلفها، وأذكر تماماً كيف كنت أجلس في سريري لأمتع عيوني بالصور المرفقة لكلّ قصةٍ على حدة وأحاول قراءتها من جديد ولا أغفو إلا والقصة نائمة إلى جانبي ومنقوشة في ذهني نقش الإبرة في الجلد. والممتع في هذه القصص محاورتي الدائمة للمعلم بما يتعلق بحياة هذا المخترع أو ذاك والظروف التي أوصلته لاختراعه، ولأنّ«الصدفة خيرٌ من ألف ميعاد» فقد كانت مصادفةً سعيدةً جداً تلك التي جمعت والدي به في أحد المحال التجارية، حيث اصطحبني ليشتري لي هديةً بمناسبة عيد ميلادي السادس، قال له معلمي يومها بعد أنْ تعارفا:

- ليس غريباً أن يكون ولدك بهذا الذكاء (فرخ البط عوام)
فردّ عليه والدي:

- هذا من اهتمامكم المُشرّف وذوقكم الرفيع وبفضلكم سيكون هذا الفرخ سبّاحاً ماهراً في الدراسة والحياة.

ثمّ تتابع الحديث حتى توصّل والدي إلى رغبة المعلم الدفينة بإتمام محاولاته الدائمة للحصول على بيت في المدينة فوعده خيراً، وبعد مدةٍ قصيرةٍ جداً وفىَ والدي بوعده وأمَّن له بيتاً في عمارتنا ليكون جاراً عزيزاً في الطابق الذي يعلونا مباشرةً، حيث أتمّ تجهيزه بعد عدّة أشهرٍ ليتزوج فيه فتكون فرحتنا فرحتين، زواجه وإغلاق المدارس أبوابها إشعاراً منها ببدء العطلة الصيفية حيث نعود أدراجنا إلى بيتنا الواقع في الريف المطلّ على البحر.

عطلةٌ لم يَشُبْ سعادتنا فيها إلا بكاء حيّان المتواصل شوقاً إلى هديل، وهذا ما اضطر والدتي لترجِّي أمها بزيارتنا فكان له ما أراد، وأقامت عائلتهم لدينا لأكثر من أسبوعين، عرّفتهم فيها والدتي بكل الأقارب (الجّد والجّدات، والخالات، والعمات).

أسبوعان أسرع وأحلى من الحلم، استوعبَنا فيها البحر بشاطئه ولونه السماوي كخيمةٍ مملوءةٍ بالحب والحنان والجنون الطفولي الرائع.

وليد رفض باكياً العودة مع أبيه، وتوسَّط له الجميع فأبقاه والده وهو يدرك مدى العناية التي سيلقاها من أمي وأقاربي، وهكذا إلى آخر العطلة حيث فاجأنا والدي بقدومه ليقيم معنا الأسبوع الأخير ولكن برفقة ضيفين عزيزين وهما العروسان: الأستاذ عبد السلام والصيدلانية أو الدكتورة كما كنا نُسميها (جنان).

مضت العطلة كرّفة عين! وعدنا قبل أيامٍ من افتتاح العام الدراسي بغية تحضيري لأجواء المدرسة وشراء لوازمي المدرسية، وكم كانت سعادة أمي بصديقتها حينما وجدت كلّ حاجاتي من الألبسة والأحذية والقرطاسيّة جاهزة بانتظاري من دون أيّ مقابل طبعاً، فلقد أسمتها أم وليد (هدية برسم الصداقة والأخوة).

في هذه الأيام تفاجأت بأن الطالب الكسول في صفنا (نائل) هو أصغر أولاد المرأة التي تأتينا بحليب يوم الخميس والذكر

الوحيد لديها، وتأكد ذلك لي من أمرين: الأول مرافقته لأمه، والثاني بلادة دماغه في حساب ثمن الحليب!

مع بداية السنة الدراسية وكما هي العادة في بداية أيّ فصل من فصول الطبيعة اجتاحت أخي حيّان موجةٌ من التحسس فتسببت له بالتهاب اللوزات فأصرّ الطبيب على إجراء عملٍ جراحي لاقتلاعها من جذورها، ولأن أمي تُصاب دائماً بدوارٍ مرعب وخوفٍ رهيب من ممرات المشافي ورائحة المعقّمات المُركّزة فلقد تبرعت جارتانا بمتابعة الموضوع من بابه إلى محرابه، حملتاه صباحاً مع والدي إلى أحد المشافي الحكومية، بينما بقيت أنا والأولاد مع أمي الباكية طوال اليوم نحاول تسليتها من دون فائدةٍ تُرجى، حسها مرهفٌ وأعصابها ضعيفةٌ جداً إلى درجةٍ قدمت فيها استقالتها من التدريس بعد أنْ وهبها الله ولدها الأول الذي هو أنا، لا لشيءٍ سوى لأنها فضّلت البقاء قربي على كلّ ميزات العمل التدريسي العام والخاص، وما زالت تفضِّل ذلك رغم ما سمعت به من المردود الطيب للدروس الخصوصية ولا سيّما ذلك المرود الذي يجنيه أمثالها مدرسو اللغة الإنكليزية.

المشكلة في أمي أنها تبكي في كلّ الحالات (الفرح الزائد، والحزن العميق، والغضب، والخوف، وأحياناً الضحك! عيناها سخيتان جداً وقلبها واسع الطيبة والرحمة). المهم أنها صرعت الدنيا بهواتفها المتواصلة إلى المشفى وبكائها الذي ألهاها عنّا وعن دراستنا، فكان بالنسبة إليّ ولوليد يوماً عامراً بالتسلية والمرح ومباحٌ فيه شراء كلّ الممنوع شراؤه عادة، مثل: أكياس «الشيبس» والبالونات والحلويات المكشوفة. تمنيت لو طالت فترة إقامته في المشفى إلا أنهم عادوا به مساءً وهو نائمٌ كالميت وهم متعبون ووجوههم مصفرةٌ كمومياءات خرجت لتوها من مدافنها، ومنذ ذلك الوقت لم يُصب بأيّ التهاب أو عدوى تنفسية كالرشح والكريب! حتى عندما اختلط مع الكثير من الأطفال في الروضة التي سجله فيها والدي مع هديل وهي روضة جديدة من رياض الحكومة المجانية لذوي العمال والشهداء.

عاش أولاد العائلتين إضافةً إلى ريم ابنة الصيدلانية - التي اعتبرها الجميع لعبةً مفضلة - حياةً هادئةً ملؤها الهدايا المتبادلة في كلّ الأعياد الدينية التي لا نعرف عنها وعن معناها أيّ شيء إلا انتظارها، والأعياد الخاصة بأعياد ميلادنا، وأعياد

زواج الأهالي، نحن الرابح الأكبر من الروتين المتبع في بيتنا وذلك ببقائنا طوال اليوم معاً. وحتى أيام العطل حيث تُبدع أمي بصناعة أنواع الحلويات المختلفة بكميات تكفي جميع الأطفال، حتى إنها تحسب حساب جارنا الجديد الشاب الصغير نزار الذي استلم منزله (الطابق الأرضي) منذ فترة قاربت الشهر. صحيحٌ أنّه نادراً ما يتواجد في البيت إلا أنّ جميع رجال البناية سارعوا إلى دمجه وتهيئته ليكون الشريك الرابع لهم في لعبة الطرنيب حتى لو تزوج، وبذلك يستغنون عن انتظار أحد الضيوف أو الاتصال بفلان أو إعلان أو إثارة تساؤلات الغيرة التي تتساءلها دائماً زوجاتهم في حال خروجهم إلى مقاهي اللعب والنارجيلة.

نحن الآن في الصف السادس، وأخبار دراستنا ومشاغباتنا تصل إلى الأهل بشكلٍ مفصلٍ من مدير المدرسة الأستاذ عبد السلام! أنا أُلامُ على تقصيري وعدم انتباهي مهما بلغ من الصغر، كالشرود للحظات أثناء الدرس! أمّا وليد المقصِّر دائماً فله الثناء بشكلٍ موصول على أيّ تقدم أو أيّ مشكلة شبه يومية يدافع فيها عن حيّان لإجبار الصفوف كافة بالسماح له بلعب

كرة القدم كونه مولعاً بالرياضة عموماً وبكرة القدم خصوصاً، ولم يقف عند هذا الحد بل إنه استمر في حمايته طوال فترة العطلة الصيفية حيث يسجل جميع الأطفال أسماءهم في النوادي التي يحبونها، أنا في نادي السباحة، وحيّان في نادي كرة القدم، بينما هديل في معهدٍ مبتدئٍ لتعليم الموسيقا، ووليد في مرسمٍ تطوعي لتعليم الرسم مجاناً. لا أحد يصدق أنّ وليد المشاغب والمدافع عن حيّان بأساليبه القتالية العنيفة أحياناً رسامٌ ماهرٌ ومن الدرجة الأولى! وبالمناسبة لا يخرج من البناية ولا يدخل بيتهم دون أن يزور ريم بنت الصيدلانية فيلاعبها لدقائقٍ قصار ويتوجه إلى غايته.

صار الفرق واضحاً بيننا أنا ووليد، ورغم أننا ما زلنا نلبس ألبسةً ونرتدي أحذيةً من اللون والموضة ذاتها إلا أنّ مقاساتنا اختلفت وصار من السهل جداً تشبيه كلّ منا إلى والده، فأنا كأبي، نحيلُ القامة ضعيف البنية، وملامح وجهي أصغر من ملامح من هم في عمري، أمّا هو فمثل أبيه قامة ممتلئة وبنية متينة وملامح وجهه كادت أنْ تتطابق مع ملامح أبيه لولا فارق التجاعيد الخفيفة والبشرة القاسية، وبمجرد معرفة

أيّ شخص في المدينة أننا جيران بطابقين في بنايةٍ واحدة ينتفي عنده العجب من صداقتنا وصداقة أهالينا.

مع بداية العام الدراسي للمرحلة الإعدادية حدثت أحداثٌ كثيرةٌ، المفرح فيها دخول ريم الصف الأول وولادة الطفل الأول لجارنا الأرضي السيد نزار، أمّا المُحزن والقاسي فهو انفجار التراكمات المالية والهفوات الإدارية المُحيطة بعمل أبي وليد وهذا ما استغرق من والدي السهر معه لليالٍ طوال، بغية دراسة الاحتمالات كافة، ومحاولات تفادي العقوبات والغرامات، وخاصة أنّ المبلغ المهدور بلغ المليون ليرة، أو فاقه بقليل، وبعد تقصٍّ طويل، وبحثٍ شاقٍ عن الحقيقة، تبيّن لوالدي أنّ المسألة ليست مسألة إهمال، أو قلة أمانة، أو حتى نزوة تساعده في إتمام بيتٍ في القرية، وإنما هي مؤامرةٌ مرتبةٌ بدقةٍ ومنذ أكثر من سنة! مؤامرةٌ حُبكت لصيد عصفورين معاً: الأول وهو مبلغ المليون ليرة، والثاني الإساءة إلى سمعة القسم بهدف عزل رئيسه! بدت الحقيقة بعد تفكيك خيوط المؤامرة واضحة وجلية ولكن للأسف من دون دلائل حسية ومادية

ملموسة فلقد لعبها لاعبوها بشكلٍ مميزٍ ودقيق آخذين في الحسبان أنّ والدي لن يستطيع حماية موظفه أو تغطية المبلغ وعليه فإن عزله قاب قوسين أو أدنى، ومصير أبي الوليد لا يهم فهو ضحيةٌ لم يكن مقصوداً ولا يهم أيضاً إنْ كان له ناقة أو جمل وإنْ دخل السجن أو طُرد من العمل، عددٌ لا يقدم ولا يؤخر من الأعداد الهائلة لضحايا حروب المناصب، هذا ما كان محتم الحدوث لولا إصرار والدي وتمسكه القوي بواجبه في الدفاع عن موظفه فجمع ما تملكه العائلتان من النقود وباع ذهب النساء ثمّ غطى الناقص من المال وأحرق كلّ الخيوط القادمة من الرقابة والتفتيش بوساطة أبي حسن نزار أو جار الرضى كما سماه الجميع.

ما حدث في هذه الأشهر كان استثنائياً في التعاضد حيث تحدّت محبة الجيران كلّ المؤامرات التي حيكت، ومن الواضح أنّ جبهة بنايتنا تستعد للهجوم وأنا لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا كان والدي يسمح لنا أنا ووليد بحضور اجتماعات التخطيط؟ ولماذا كان دائماً يردّد أمامنا بعض الحكايا والأمثال

الشعبية مثل: (كما تدين تدان) أو(وعلى الباغي تدور الدوائر)، و(للباطل جولات وللحق جولة يُزهقْ فيها الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً)؟

لقد كنت شديد الانتباه فألتقطُ أيّ كلمة ناقشاً إيّاها في ذاكرتي، حتى تمكنت من رسم صورٍ لأوجه الحاقدين كما يسميهم أبو الوليد ولأنفسهم الشيطانية، ولَكمْ تقمَّصنا في ألعابنا أدواراً لمحاربتهم (كالشرطي والمحقق والقاضي).

لقد اعتبرت هذه الحادثة الخط الفاصل بين طفولتي ومراهقتي، ولطالما سمح لي والدي بمشاركتهم جلسات المواجهة تلك حتى إنْ كنت صامتاً فهذا دليلٌ واضحٌ على اعترافه لي بالوعي والحس والإدراك الكافي لتحمّل المسؤولية. والحق أقول إنّ غياباته المُطولة عن البيت أثّرت بي أكثر من حضوري لهذه الاجتماعات فقد أصبحت بين ليلة وضحاها عمود البيت وعماده وأصبح روتيناً يومياً ذهابي إلى الفرن وشراء ما نشتهي من وجبات الفطور أثناء عودتي ومن ثمّ العناية بهندامي ولف لفائف الطعام لي ولأخي حيّان والعودة

ممسكاً يده ويد هديل إذا ما تأخر وليد والاهتمام بوظائفنا على النحو الذي كان يهتم فيه أبي بنا.

مرّت أكثر من سنتين حتى تمكّن والدي من فكفكة وحلحلة خيوط الشبكة وهو الآن بموقعٍ يؤهله من إعلان نصره بالطريقة التي يشاؤها... لكن على من؟؟ هذا ما قاله لنا أنا ووليد فقط وقال أيضاً:

- أستطيع الآن أنْ أخرب بيوتهم وأنْ أتسبب بطردهم تعسفياً من الوظيفة والمدينة... ولكن أهكذا يكون النصر؟ سيكون هذا انتصار الجبناء... صحيحٌ أنّ الحق معي ولن يلومني أحدٌ إذا ما فعلت هذا، ولكنني أسأل نفسي دوماً أيّ اختلافٍ سأختلفه عنهم إذا ما تصرفتُ مثلهم؟ لقد أعمى الحقد والحسد أعينهم فسعوا بكلّ ما في وسعهم وبكلّ ما أوتوا من دهاءٍ أنْ يسرقوا وينهبوا مال الدولة ملصقين التهمة بأبي الوليد وضاربين بعرض الحائط سمعته وسمعتي، ولم يحسبوا في أيّ لحظةٍ إلام ستؤوله بهم أنفسهم الأمارة بالسوء، سواء نجحت أعمالهم وكانت نتيجة ذلك طردنا من العمل ومن المدينة وتشويه سمعتنا أم فشلت. ووُضع مصيرهم بين يديّ

وبانتظار توقيع واحدٍ مني ليُطردوا وعائلاتهم إلى مكب الفقر والحرمان والمذلّة وأنتما تريان كم من مترجٍ يأتينا صباح مساء يطلب العفو والسماح لهم ونحن الآن بين نارين إنْ عفونا أسأنا إلى حقنا وأعصابنا التي أُرهقت لعامين، وإن انتقمنا أسأنا إلى ذويهم وعائلاتهم ولربّما كانوا أبناءً لأناسٍ طيبين أو آباءً لأطفالٍ مهذبين أو أزواجاً لنساءٍ أبينَ أفعالهم أو خجلنَ منها... وأنا في الحقيقة تقصّدت أن أجلسكما معنا في الكثير من الجلسات ليأتي هذا اليوم، فأترك خيار الحكم بين أيديكما وقبل ذلك لتتعلما إنّ من يحاول بناء بيته من حجارة الحرام فستبقى داره رهن الخراب، ولتتيقّنا من أنّه لا يصح إلا الصحيح، وإنّ درب الباطل والشيطان لا يؤدي إلا إلى مهاوي الردى، وإن حبل الشر وإنْ طال فهو مقطوعٌ بسيف الحق البتار. تناقشَا في الأمر وضعَا أنفسكما مكان أولادهم تارةً ومكاننا تارةً أخرى فما أنتما مقرران؟

أكبر مما قد استوعب، ولكنني شعرت بنشوة المسؤولية إذ وضعني في موضع المقرر، هذا أبٌ عظيم صبر على رؤيتي له متعباً ومنكسراً ومهموماً لمدّة عامين ليعلمني درساً واحداً، درساً

بحجم التاريخ والنفس والعقل والقلب، وفي النهاية يترك القرار لي أو لنا. وما عسانا نقرر؟ هكذا بدأ وليد الحديث.

- وما عسانا نقرر؟ وهل نحن في عمرٍ يسمح لنا بالإدلاء برأينا أصلاً حتى يُسمح لنا أن نقرر؟ هذا ظلمٌ لأعمارنا! نحن ولدان، وهذا من شأن الرجال! أقدّر عالياً سماحهم لنا بحضور جلسات حربهم ولكنه خطأ كبير أن أُعطي أنا أو أنت قرار الحسم! من يلعب في شوارع الحارة بكرة القدم لا يصلح لإعطاء قرارٍ بهذا الحجم، ثمّ إن للقصة تشعباتٍ تخص العمل الوظيفي فماذا لو أعطينا قراراً بنعمٍ أو لا؟ بعقوبةٍ أو سماح؟ ونفذ والدك وعده باتخاذ قرارنا كقرارٍ حاسم لا رجعة عنه، ثمّ تفاجأنا جميعاً بأنه القرار الخاطئ، أو القرار الخطأ وقد تسبب بأضرارٍ لا حصر لها، فما نفعل نحن وآباؤنا؟ نعتذر مثلاً؟! أنا برأيي أن نشكرهم على حسن معاملتنا وتقديرهم لعمرنا ولوعينا وننسحب فلا نحن نأسف إن انتقموا منهم وذلك طبقاً للمثل القائل (وعلى نفسها جنت براقش) ولا نحن نسعد بالعفو والصفح عنهم من مبدأ العفو من شيم الكرام.

- لأول مرّة أنتبه لصياغة كلامك! أنت تتكلم كشابٍ بالغٍ أو رجلٍ مخضرم! فما الذي يمنعك من الإدلاء برأيك؟ لن تقطع رأس أحد لمجرد رأي، ألمْ يُثر لديك موقف والدينا الصائب والصلب لذةّ الانتقام؟ ألمْ يهيج موقف المعتذرين الضعفاء مشاعر العطف لتعفو؟ غريبٌ جداً قولك بعد كلّ ما تقمصناه في ألعابنا من أدوارٍ نقودهم فيها وكأننا رجال شرطة أو نسألهم كالمحققين أو نحاكمهم كالقضاة! حتى إننا لم نعف عنهم يوماً وأحكامنا كانت على الدوام قاسيةً، وأفظع من أن ينالها مرتشٍ أو سارق، لقد منحنا والدي منحةً كبيرة وإن لم نقرر القرار الصائب ستسقط هيبة أعمارنا وسنعود إلى سابق عهدنا في عينيه أطفالاً لا يُعتمد عليهما بشيْء أنا برأيي أن نفكر ونناقش أفكارنا ثمّ نقرر ما نراه صحيحاً مع التعليل كما يقول الأستاذ عبد السلام فإن أعجبهم أخذوا به وإن لم يعجبهم اعتمدوا غيره وبقينا في أعينهم شابّين واعيين ومسؤولَيْن.

بعد نقاشٍ طويل لمدّة ساعتين هو يدافع عن فكرة العقوبة الصارمة ورأيه الانتقام بشدة فلا يعودون لا هم ولا غيرهم لعمل وحبك هكذا مؤامرات ضد والدينا أو ضد غيرهم،

وأنا أدافع بقوةٍ أكبر عن عقوبةٍ أصعب وهي عقوبة الإحسان فطالما اعترفوا وإن كان اعترافهم عن بينة وطالما اعتذروا وإن جاء اعتذارهم عن مخافة فالعفو سيد الأحكام.

- العفو سيد الأحكام يعني أنت تقصد القول المأثور الصلح سيد الأحكام؟! تخيّل لو أننا أعطينا قرارنا هذا وبالفعل عفوا عنهم وسامحوهم وسآتي معك أكثر من ذلك صالحوهم فأيّ ظلمٍ نكون قد أمرنا بتنفيذه على والدينا أنسيت المليون ليرة؟ وكيف جُمعت من ذهب أمي وأمك؟ ومن عرق جبين أبي وأبيك؟ أنت تستطيع أن تعفو لأنك لم تشعر بحرقة الآه والتحسّر على البيت الذي كاد أن يكتمل وذهبت أموال إكماله لتسديد المال المسروق، أنت لا تعرف ماذا يعني أن يأتِي الصيف ولا تستطيع مغادرة عدرا العُمّاليّة إلى أيّ مكانٍ آخر، ألا تذكر كم مرة رفضت العودة مع أهلي وبقيت عندكم؟ أنت لا تعرف شيئاً عن القهر المكنون في قلب أمي وأبي لأنّ أولادهما لا يعرفان إلا القليل عن أقاربهما، أنت لا تعرف شيئاً عن شوقي وشوق هديل لكما أنت وحيّان حتى تعودا من صيفكم الخلاب وبحركم الواسع وبيتكم الريفي الحنون، أنا ضد العفو

قولاً واحداً وما كان رأيي بعدم التدّخل إلا هروباً من حدّة انتقامي، فو الله إني لأودُّ أن أرى لهم مشانق منصوبة في ساحتنا الرئيسة حتى لو تكلف ذلك مليون ليرة غير التي سلبوها.

- هونك هونك! أنت تتكلم عن بشر سواء كانوا القادرين على إعطاء الأوامر والقرارات أم كانوا المنفذين الصاغرين، فالأولون لهم قلوبٌ فطرها الله على الخير لا حجارة صماء والآخرون بشر قابلون للخطأ وللتوبة ولهم أقارب وأحباب وأصحاب وما جريمتهم بالتي تستحق هذه العقوبة وإن استحقت هذا الانفعال!

- هذا رأيي ولن أحيِّد عنه.

- لم أعهدْك عنيداً إلى هذه الدرجة! ثمّ إنّه أول اختبارٍ لنا ولابدّ أن نعكس لهم صورةً طيبة وصافية عن فكرنا.

- اعكس أنت ما شئت من الصور، من لفحته شمس عدرا العُمّاليّة صيفاً غير الذي لفحته شمس البحر، الشمس واحدة نعم ولكن شتان في تأثيرها على الذي بقي هنا وعلى الذي غادرها إلى حيث المتعة والراحة.

- ما رأيك لو بحثنا هذا الموضوع سراً مع الأستاذ عبد السلام وزوجه؟ أنت تعرف كم يحبانا؟ أعتقد أنهما يعرفان مجمل القصة ورغم تعاطفهما الشديد معنا إلا أنهما لم يتدخلا رغبةً منا ومنهم في تضييق دائرة الحديث، نشاورهما فقط لا غير (من شاور الناس شاركهم عقولهم).

- موافق، عصفوران بحجرٍ واحد أُلاعب ريم وأستمع إلى ما يكون من رأيهما.

(الزيارة غريبة لأن موعدها غريب) هكذا بدأ مرحباً بنا.

- أهلاً وسهلاً عسى من خير؟ فليتكلم أحدكما قبل أن يصيبني القلق.

- أين ريم؟

- لم تأتيا لتُلاعبا ريم وأنتما تعرفان أنه موعد نومها؟! وليد هات من الآخر؟

- أنا من سيتكلم، جئنا نأخذ رأيك في حكايةٍ قديمةٍ جديدة، أنت تعرف بعضاً من أحداثها والكثير منها مخفيٌ عنك إنها قصة الفساد المالي في القسم الذي يرأسه والدي.

- أعرف الكثير عن هذا الموضوع ألم ينتهِ؟ سمعت أنهم أرسلوا اعتذاراتٍ كثيرة! فما هو جديدكما؟

- الجديد أنّ والدي وضع قرار الحكم عليهم بين أيدينا أنا ووليد مقسماً على تنفيذه أيّاً يكون، فإمّا العقوبة بفصلهم من العمل وطردهم من المدينة كما يرغب وليد وإمّا العفو والصفح كما أرغب أنا، الحكم الأول حرامٌ في نظري ومبالغٌ فيه والثاني ضعفٌ في نظره ولا فائدة مرجوة منه فأشر علينا فلابد وأنّ تفكيرك أصفى وأنت خارج هذه الدائرة.

- جميلٌ جداً أن تصل ثقة الطلاب بمعلمهم إلى هذه الدرجة والأجمل أن أكون على قدر هذه الثقة، اسمعا يا ولدّي لقد قرأت يوماً في نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (إنّ يوم العدل على الظالم أشدّ من يوم العدل على المظلوم). ويقول يسوع المسيح في سفر الجامعة: (إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل في البلاد فلا ترتع من الأمر لأن فوق العالي عالٍ يلاحظ والأعلى فوقهما). وأنا أقول كما يقول كلّ رجال الدين والمصلحين ما قاله نبي الإسلام محمد (خير الأمور أوسطها). نحن نحكم بإنسانيتنا والباقي يتكفل به الله رب العالمين.

وليد معه حق ويستحقون أشدّ العقوبات وأنت معك حق فعقوبة الإحسان تنفع حيث لا تنفع القوة ما رأيكما لو يُعفى عنهم مقابل اعترافهم بالذنب أمام عمال القسم جميعاً وإرجاع المال المسروق؟ ولا تظن يا وليد بأنّ اعترافهم أمام الجميع بالشيء السهل، هذا عدا عن دفع ما يترتب عليهم من تعويض وأنت يا علي لا تظن بأن العفو عن هكذا جريمة ليس بعظيم وأعتقد أنّ كلاكما سيكون راضياً إنْ أعجبكما قولي وحكمي؟!

قوله وحكمه أعجبانا وأعجبا والدينا، وبالفعل فقد نُفذ حرفياً فاسترد كلّ واحدٍ منهما ماله وتوقفت إجراءات الرقابة والتفتيش عنهما بعد الاعتذار الواضح وأمام العمال جميعاً وكان من نتائج هذه المؤامرة نقل أبي وليد من مكتبه في مالية القسم إلى مكتبٍ جديدٍ باسم مدير مكتب رئيس القسم.

لم أسافر هذا الصيف إلى القرية بل بقيت مع والدي في المدينة التي أحب، سجلتُ ووليد في معهد لدراسة مواد الصف الثالث الإعدادي كافة، لقد عوضت أم الوليد عناية أمي بأولادها بعنايتها الفائقة بي فاعتدت على طبخها اليومي، ثمّ إنها أفرغت لنا غرفة للدراسة وأصدرت تعليماتٍ

صارمة إلى زوجها وأبي بعدم الاقتراب من بيتهم طوال فترة ما بعد الظهر حتى انتهاء الدراسة بمعنى (بيتهم للدراسة وبيتنا للعب الطرنيب).

رسم الاجتهاد ملامحه على وجهنا حتى أصبحنا مضرب مثل عند جميع المعلمين، لم يكن تفوقنا من باب التنافس ولم نفكر في هذا أصلاً، صممنا على التفوق وعرفنا طريقه بحكمتين فقط لا غير، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، ومن طلب المعالي سهر الليالي. لم أجد طريقه صعباً وخاصةً أنّ أجواء البيت مساعدة جداً لعبور طريقه بسلاسة فأبي جاهزٌ في أيّ لحظة لشرح ما أشعر بنقصٍ في استيعابه وأمي جاهزةٌ دوماً للطلبات كافة وأكثر الأحيان قبل أنْ أطلب (الطعام، الشاي، المتّة التي اعتدت عليها منذ ما يُقارب السنة)، وفوق ذلك التسميع بتحضير الأسئلة الطويلة لكلِّ درسٍ بدرسه، والسهر معي قبل المذاكرات والامتحانات، أمّا أخي حيّان الذي استشعر خطورة هذه السنة فقد لزم الهدوء والجلوس أمام شاشة الكمبيوتر بعد إنهاء دروسه كافةً وفي الحالات النادرة التي زارتنا فيها هديل لم يسمح لضجة ألعابها

أن تتجاوز باب الغرفة التي يلعبون بها، ومن جدّ وجد فقد حصلت على المركز الأول في الفصل الأول وكما يقال أثناء توزيع الجوائز مناصفةً مع وليد فكلانا حقق العلامة المنقوصة عن العلامة التامة درجتين، أنا أضعتهما في اللغة العربية والتاريخ وهو أضاعهما في الرياضيات والفيزياء! وتكريماً لذلك فقد أقام والدانا وليمة عشاء ضمت إضافةً لعائلاتنا عائلة المدير وعائلة السيد نزار.

مع بداية الفصل الثاني تغيرت الأحوال قليلاً وذلك بسبب إصابة والدي بمرضٍ ما في الكلية! تسبب له بنوباتٍ مؤلمة أوصلته حدّ الصراخ والإسعاف، فتدارك أهل وليد الموضوع ومع كلّ نوبة كان عليَّ وبشكلٍ إجباري مغادرة بيتنا للإقامة في غرفة وليد ليومين أو أكثر وهكذا دواليك إلى أنْ أتى الامتحان ثقيلاً بتوقيته، سهلاً بأسئلته، وبفضل الله وعونه تمّ اجتيازه بتفوقٍ منقطع النظير، إذ إنني أحرزت المركز الأول ليس على مدرستنا فحسب بل على جميع مدارس ريف دمشق، ولم تنقصني إلا علامة واحدة في اللغة العربية، ولولا ذلك لكان نصيبي المركز الأول على طلاب سورية كافة، أما وليد فقد

تلاني بالترتيب إذ لم تتغير علامته قيد أنملة، وجميع من توقع المدير رسوبهم رسبوا بجدارة وعلى رأسهم نائل ابن بائعة الحليب الطيبة!

الصيف كان مميزاً بشمسه، ببحره، بصحة والدي التي نطمئن عليها يومياً، ببقاء وليد معنا دون معارضة والديه كمكافأةٍ له، بهدوء حيّان الذي اعتاد الوحدة بعد أنْ خففت هديل زيارتنا إلى درجةٍ يُصعب تفهمها بالنسبة لنا إذ لا جواب لسؤال حيّان المُلحْ دائماً على أمي، لمَ تمنع والدة هديل قدومها إلى بيتنا أو إلى بحرنا بعكس سماحهم لوليد بذلك؟ حتى إنْ نال جواباً تهريبياً كبقائها لمساعدة أمها مثلاً، لم يكن مقنعاً لأمنا أولاً ولحيّان ثانياً!!

انتهى الصيف كما هي العادة محملاً بذكرياتٍ لا تنسى وصورٍ كثيرةٍ تمّ التقاطها بكاميرا خاصة جلبها أبي معه من روسيا حيث كانت دراسته، صورٌ استحوذت على أغلب أوقات السهرات المتلاحقة، مشاركات بالجملة، هذه صُوِّرَتْ يوم كذا وهذه صوَّرْنا فيها فلاناً أمّا تلك فقد التقطت لحظة صار كذا، والضحك متواصلٌ والفرح بادٍ عل جميع

الأوجه باستثناء وجه هديل الذي يقترب ضحكةً بضحكةٍ من البكاء .

انتقالنا إلى المرحلة الثانوية فتح فضاءً واسعاً وغير مألوفٍ لشابين ظنا أنّ فضاء الطابقين الاجتماعي هو أوسع فضاءٍ قد يعيشان بداخله! لكن الحقيقة التي تجاوزت حدود مقلة العين كانت مبهرة حيث أظهرت فضاء الطابقين قوقعة متناهية في الصغر إذا ما قورن بفضاء التشعُّبات الكثيفة.

مدرسة الثانوية صورة مصغرة لبلدٍ كبيرٍ كسورية إذ يلتقي في أيّ قاعةٍ لا على التعيين طلابٌ من كلّ أرجاء المعمورة السوريّة، ولا استغراب في ذلك بالنسبة لمدرسة بُنيت لتضم أبناء العمال القادمين من شتى المحافظات إضافةً لأبناء أهل عدرا البلد.

في البداية أرعبتني فكرة التعارف العشوائي وخشيت على انطوائيتي، ولكن في النهاية لا مجال، فإمّا أن تندمج مع الاحتفاظ بخصوصيتك، أو تتوحد مع ذاتك خارج هذه التجمعات والأسراب المنتشرة في الساحة والمتغيرة بشكلٍ دائم.

كثيراً ما كنا نذهب في السيارة مع والدينا، نحن نترجل باتجاه الساحة وهما يسلمان مصافحةً على فلان ويلوِّحان لفلان، وقد

يستغرق وقوفهما مع هذا أو ذاك حتى ينبههما جرس المدرسة الصباحي. الأعداد الغفيرة من معارف أبي أدهشتني! إذ لم أتوقع من رجلٍ مثله لا يترك البيت إلا إلى العمل ولا يترك العمل إلا إلى البيت كلّ هذه المعارف وكم من مرّة ضحكت في داخلي وأنا أردد (ظننتك لا تعرف أحداً خارج إطار شركاء الطرنيب فإذا بك فضاءٌ واسعٌ لا أستطيع إحصاء معارفك فيه).

في بادئ الأمر حاولت كما حاول وليد إحاطة علاقتنا بحاجزٍ مناعي، لكن أيّ حاجزٍ ذلك الذي يستطيع صدّ تدّفق الوجوه المألوفة والابتسامات الودودة والأحاديث الودّية وهكذا إلى أن شعرت ببداية التهشم، ورويداً رويداً صار اليوم الدراسي يمضي بأكمله دون أن أمشي مع وليد أو أحادثه في الوقت المخصص للفرص والاستراحات! لقد سرقتهُ الكثرة تغلغلاً دون أن يشعر، وساقته معمعة الاندماج إلى حيث لا يدرك، حتى ظن أن نصائحي له بالتريث والتمهل بقبول هذه الصداقات غيرة! لم يكن في وسعي عمل شيء وأنا أرى وليد يتراجع في دراسته وأرى الامتحان يقترب من الأبواب، وهو لا يدرك عن تراجعه شيئاً ولا يعي أن تسارع الأيام

لا يغفر له نسيانه! فما كان مني إلا أن أخبرت أهله ويا ليتني لم أفعل، فقد تسببت بإحداث إشكالٍ طويل كان منه أنْ هدد الوالد ولده بنيل عقوبةٍ غير مسبوقة إذا ما كانت نتيجة الامتحان غير مُرضية أو إذا ما تراجع ترتيبه عن المرتبة الأولى أو الثانية وهذا ما لم يستطع تحقيقه حتى لو نال العلامات التامة في جميع مواد امتحانه لأن مذاكراته التمهيدية متراجعة جداً.

حمل لي في عيونه نظرةً مفهومة المعنى، ما بيني وبينك قد انكسر والذي ينكسر لا يعود كما كان حتى لو جُبِرَ، حاولت أن أفسر له، أنْ أشرح له لكنه تهرّب وبطريقةٍ أزعجتني جداً، إذ إنه رفض سماعي أو حتى الوقوف معي، الفرق بيني وبينه أنني لم أسمح للسور المناعي بالتهشم هكذا وكأنه لم يكن أصلاً، أو أنْ يذهب بكلّ ما حملت من ودٍّ وصدقٍ كالهباء المنثور، لا أبداً لم أسمح بذلك بل استخدمت هذا المخزون الهائل من الحب في دفع تفكيري إلى الأمام بحيث أنتقي أنا من سيصبح صديقي من هذه العيّنة العشوائية التي حاولت مصادقتي على أسسٍ لم أقتنع بها ولم أسمح لها باختراقي أو لم يُسمح لها بالاقتراب مني!

لم يخجل وليد من نتيجته أو من حصوله على المرتبة السادسة، لقد استحوذت عليه أفكار من يسميهم والده برفاق السوء، سيطرت عليه من غير فهمٍ منه أو وعي، هو هكذا دائماً يستطيع أبسط حوار أن يحرفه من طريق الزهور إلى طريق الصخور! يقتنع بسهولة ويندم بسرعة، يخرج من حفرة ليقع في أخرى، لقد عبثوا بأفكاره حتى أصبح لديه التقدم والتراجع سيان، قالها بالفم الفاغر: أنا الولد البكر وأنا أطول من والدي وأنا شاب ولا يجوز لأحدٍ فرض سطوته عليّ حتى لو كان أبي! هكذا أخبرنا والده عندما جاءنا مباركاً لي بنيلي الدرجة الأولى وبما أجبته؟ ألم تصفعه على وجهه؟ سأله والدي.

- هنا المشكلة لقد صفعته بدل الصفعة صفعات وندمت أشد الندم! لقد بكى كالطفل واعتذر عن كلّ الكلام الذي نطق به لسانه وكأنه ملقنٌ به تلقيناً، وإنْ سمح له علي فهو سيأتي ليعتذر منه ومن كلّ العائلة.

سيأتي ليعتذر مني؟ وهل لي أنْ أنسى نظرته وما عنته من انكسارٍ لعلاقتنا؟ وهل لي أنْ أنسى تفسيره لمحاولات إنقاذه المستمرة بالغيرة؟! أنا مراهق مثلي مثله لكن لم يستطع

رفاق السوء أو غيرهم جرّي إلى أن أطيع نفسي وأفقد زمام أموري ولو استمع إلى نصائحي لما وضع نفسه موضع التبرير والاعتذار.

قريباً سنغادر إلى بحرنا، وقد عقدت العزم على عدم اصطحابه معنا عقوبةً له، علّه يشعر بما جناه على نفسه، لكن وسبحان الله نويت عليه نية فأصابني الله بها إذ بدأت حالة والدي تتدهور مما اضطرنا لإسعافه، لقد كابر والدي على مرضه، هي عادةٌ قديمةٌ فيه إذ لا يسمح للسانه بالبوح عن أيّ ألم من آلامه، ولا أحد يستطيع إقناعه بزيارة طبيب ما لم يُسقطه الألم أرضاً وغصباً عنه!

لم يصدق أحدٌ من الأطباء أن تصل أمور مريضٍ إلى هذه الدرجة وهو ما يزال يتحرك ويمارس عمله، هذه معجزةٌ إلهية أنْ يكون على قيد الحياة! قال رئيس قسم الكِلْيَةِ في المشفى وتابع مفصلاً:

- لا أظنه يحيا طويلاً هو بحاجة إلى كِلْية وبأسرع وقت، عليكم أنْ تجدوا متبرعاً ما، اتصلوا بأخوته وأقاربه فاحتمال أن تتوافق تحاليل أنسجتهم ودمائهم معه أكثر من غيرهم، الوقت

يداهمنا، معكم عشرون يوماً فقط! الأجهزة لا تستطيع إحياءه أكثر من ذلك.

الصدمة الأولى لنا كانت في وصول المرض إلى هذه المرحلة قافزاً مراحل عديدة أو ماراً بها تحت تغطيةٍ تامةٍ شاملة لمكابرة والدي، أما الصدمة الثانية فهي صدمة الحيرة إذ ليس لي أعمامٍ، لي عمات وأخوال وخالات والمنطق يحكم بالرفض القطعي، كان علينا إخبارهم لسببين مع معرفتنا المسبقة طبعاً بعدم تبرعهم، الأول كي لا يحتجوا بـ (لو قلتم لنا، لو أخبرتمونا لكان كذا وكان كذا) والثاني لينشروا الخبر فعساه يقع على أذن أحدٍ من محبّي العمل الإنساني والتبرع.

مضت خمسة أيام والاتصالات القادمة من اللاذقية لا تُبشر بخير وإنما حديث اطمئنان ورفع عتب، حديثٌ سريعٌ ومقتضب، دقيقة أو دقيقتان وإغلاق الهاتف ثلاثة أرباع المرجلة!

حالة والدي تتراجع، وصحته تذوي ساعةً بعد ساعة، أمّا حالة يأسنا فإلى ارتفاع وقنوطنا وصل مرحلته الأخيرة برفض الطبيب إجراء أيّ فحوص لي لأنني لم أبلغ الثامنة عشرة من عمري، هكذا حتى وصلنا إلى اليوم الحادي عشر وجاءتنا

البشرى من غائب علم الله، بشرى صباحيّة قيمتها تساوي قيمة الحياة فمن هو المانح؟ وأيّ شكرٍ تستحق منحته؟ فرج الله عظيم!! ومن يقنط من رحمته التي وسعت كلّ شيء؟

في الممر الطويل اجتمع شركاء الطرنيب مع عائلاتهم، الرجال يباركون والنساء يبكين فرحاً، أمّا وليد الذي لم يفارقني لحظةً واحدة فقد كان تعبير فرحه ضحكاً ممزوجاً بالبكاء وقفزاً متناوباً مع الجمود والخمود، أمّا حيّان فكان الوحيد الذي لم تُذرفْ له دمعة من لحظة إدخاله المشفى إلى هذه اللحظة، يدعو الله بإغماضٍ مؤقتٍ أو بشرودٍ طويل، ويشكره بصمتٍ عميق أو بعبارات أقرب إلى الهمس قد تُسمع أحياناً وأغلب الأحيان لا تُسمع حتّى لو دققت بالإنصات.

أكثر من مرة جرب وليد الاتصال بوالده ليبشره ولكن للأسف كان الجوال خارج التغطية وهاتف المكتب يرن دون أن يُجيب أحد!

- لا ترتبك سيعود بعد نهاية الدوام وستكون بشرى سارة له بعد عمل يومٍ مضنٍ، أنا أعذره إنْ قفل جوّاله ولم يجلس في مكتبه، لقد أوكله والدي بجميع أعماله، يأتي صباحاً ليتزود

بالنصائح والمشورة ويعود بعد الظهر محملاً بالبريد فيشرح لوالدي ما حصد من نتائج.

ساعتان فقط استلزم الأمر ليكون والدي في غرفة العمليات المحضرة مسبقاً، لم نأخذ وقتنا لتوديعه، داهمنا طاقم التمريض على حين غرّة، سحبوا السرير بأجهزته واختفوا في المصعد المخصص للعمليات، وساعة بعد ساعة يدخلُ ممرضٌ أو طبيبٌ فنرجو أن يُطمئنا عمّا يجري في الداخل ويخرج آخرون فنرجوهم الإفصاح عن أيّ كلمة تُبرد قلوبنا بمعرفة أيّ شيء والجميع يهزون رؤوسهم وينطقون بجملة واحدة (خيرٌ إن شاء الله).

أثقل وقتٍ هو وقت الانتظار وانتظار ماذا؟ انتظار خبرٍ باحتمالين قد يكون خبر الحياة والفرح والاستمرار والنعيم وقد يكون خبر الموت والمأساة والفشل والنهاية.

سبع ساعات هي الساعات التي مرّت حتى خرج علينا رئيس القسم بلباسه الأخضر وكمامته الكبيرة:

- الحمد لله لقد نجحت العملية، سيبقى ليومين مع رفيقه تحت الرقابة في الغرفة الزجاجية للعناية المشددة، لا تقلقوا أمورهما بخير.

لحق السيد نزار الطبيب ودخل معه في حديثٍ غلبت عليه الإشارات ثمّ عاد مذهولاً تكسو وجهه ملامح غريبةً أقرب ما تكون من ملامح الأبله!

- هل عرف أحدكم شيئاً عن المتبرع؟ من الطبيعي جداً أنْ لا تعرفوا، لقد أخبرني الدكتور باسمه ولن تصدقوا من يكون.

- ومن أين لنا أنْ نعرف اسم المتبرع؟ أصحاب الخير يفضلون دائماً إخفاء أسمائهم.

- نعم... ولكن هذه المرة لا يستطيع المتبرع إخفاءه لأنه منا وفينا.

- منا وفينا؟! لم نعرف من تقصد؟ الجميع هنا؟

- نعم... باستثناء أبي وليد.

- تقصد أنّ والدي هنا في غرفة العمليات؟

- نعم والدك المتبرع، لقد أخبرني الطبيب أنه ومنذ أكثر من أسبوع عمدَ إلى المخبر لإجراء تحاليل الدم والأنسجة، لقد كان سعيداً جداً للنتائج المتوافقة ولذلك طالب بالإسراع بإجراء العملية.

سند وليد ظهره على الجدار ثمّ انساب بكامل جسده كالماء المسكوب إلى أنْ جلس مفرطاً في دموعه وابتساماته قائلاً:

- هذا أبي رجل السيف والضيف، أبي وأبوك مستلقيان داخل غرفة العمليات يدفعان الموت ويتبادلان الحياة مناصفةً يا علي، كم كنت أحمقَ عندما سرت على طريقٍ لم يُعبّده أبي، سامحني يا أبي إذ إنني أخجلتك وخيبتُ ظنونك بي.

جلست قربه محتضناً إيّاه، باكياً معه بصورة أبكت جميع الحضور الذين حاولوا إعانتنا على الوقوف ورفع معنوياتنا بالكلام الكبير عن الرجولة والمسؤولية التي ألقيت على أكتافنا بمجرد دخول والدينا قاعة العمليات ذات الأبواب الخضراء.

ما أصاب وليد بسماعه النبأ لم يكن أفضل حالاً مما أصاب والدته التي أبدت ملامحَ أشبه بملامحِ المصعوق، لقد ذُهلت إلى مرحلة الانهيار!

لم أناقش في هذا التلقي العجيب للخبر، إذ توقعت كما الجميع أن تبكي قليلاً، وتفخر كثيراً بشهامة زوجها، لكن أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة! فماذا يعني كلّ كلامها عن

التمنيات والدعوات المتلاحقة بالعثور السريع على أي متبرع؟ وماذا يعني كلّ اندفاعها وتحريضها المستمر لشراء كلية بأقصى سرعة مع الجاهزية العالية لتقديم الغالي والرخيص في سبيل تسهيل هذه المهمة؟

النساء نساء! ويبدو لي أن قناة العقل والتفكير تتوقف بمجرد تجاوزها الخط الأحمر للعاطفة، مع اختلاف هذا الخط بين امرأةٍ وأخرى، وأبو الوليد شكّل بداية هذا الخط عندها، استمر بكاؤها القهري الصامت إلى أن رأت السريرين يخرجان من غرفة العمليات باتجاه الغرفة الزجاجية للعناية المشددة، الرجلان المستلقيان مخدران! وسيظلان في حالة تخدير أو تنويم إجباري لمدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة، رؤيتهما كانت سهلة جداً من الزجاج الشفاف اللامع، اشترك الجميع بفرح عميق ناتجٍ عن نجاح العملية، وبروز الحالة الإنسانية بأبهى صورها، صدق الذي قال: الجار قبل الدار، هنا في المدينة العُمّاليّة ترى جارك وتتعامل معه أكثر مما ترى أخوتك وتتعامل معهم، وأعتقد أنّ الجميع عظَّم تصرّف أبي الوليد، واعتبروا أنّ

تبرعه أقصى ما يمكن أن يُبذل في سبيل نقاء العلاقة التي جمعت ومنذ سنين عائلتين تسكنان بناية واحدة وطابقين متتاليين.

زحفت أصابع أم الوليد على الزجاج بحركةٍ ناعمةٍ خفيةٍ، تشبه تسلل الدمع على خدّيها، لوّحتْ بهدوءٍ لزوجها الراقد، لمتُ نفسي كثيراً على ما فكرت به، من حقها كما هو حق أيّ امرأةٍ مُحبةٍ لزوجها أنْ تفعل ما فعلت أو أنْ تُصاب بما أصيبت به، ربما لم تتوقع في أيّ لحظة أن يكون زوجها هو المتبرع، أو ربما اعتبرت أنّ هذا الموضوع ليس خاصاً به فقط، هي زوجه التي تحبه وتخاف عليه من نسمة الهواء وفاجأها جداً أن يقوم بما قام به دون معرفتها أو مشورتها على الأقل، قلت في نفسي: إنّ هذا الرجل ذكي وقد أخفى ما عزمَ عليه لمعرفته المسبقة بعاطفة زوجه نحوه وإنّ أيّ مشورة قد تُلغي فكرته بالتبرع، هذا التبرع الذي يعتبره حقاً من حقوق أبي عليه، وواجباً من واجباته إنْ لم يكن تجاه هذا الرجل الذي كان له فيما مضى عوناً وسنداً وظهراً وحامياً وجاراً وأخاً فهو واجبٌ تجاه الإنسانية.

مضتْ الأربع والعشرون ساعة، واستفاق الرجلان وصار باستطاعتنا تبادل الابتسامات معهما، نُلوّح لهما فيحركان

أطراف أصابعهما، نبتسم لهما فيُغمضان أعينهما بمعنى التلقّي والرد بالمثل.

طوال الوقت نجلس صامتين، كلّ اثنين متجاورين، أنا ووليد، هديل وحيّان، أمي وأمه، السيد نزار والسيد عبد السلام، هذا الصمت يحتاج إلى فتيلٍ كي ينفجر، كلمةً واحدة قد تُحدث بركاناً من دموع، وتصرفٌ واحد قد يُثير موجةً من تساؤلاتٍ لا تنتهِي.

- ما بكم يا جماعة نحن لسنا في حالة عزاء؟ لقد تمّ الأمر ونجحت العملية بعون الله! فلِمَ الوجوم؟ سيكون كلّ شيءٍ رائعاً!

- السيد نزار بيده حق، ومن الأفضل أنْ نستبدل هذا الصمت بالكلام عن المستقبل السعيد، سيعود الرجلان كُلٌّ إلى بيته وعملهما عمّا قريب وغداً صباحاً سنستطيع الدخول إليهما والحديث معهما، فهل هذا الحزن منظرٌ جميلٌ ولائق لتستقبله أعينهما؟!! حذارِ، وأوجِّه كلامي بالتحديد لأختنا أم الوليد، حذارِ أنْ تلومي زوجك أو تعتبي عليه، حالته النفسية ستكون متعبة جداً فلا تُضيفي على كاهله ما لا يُطيق، لستِ

بحاجة لأعلمك ما ستقولينه لزوجك، هو بحاجة للكلام الذي يرفع المعنويات ويُعظّم الأعمال الخيريّة، أمّا الآن فليذهب الجميع بسيارة السيد نزار إلى البيت، أنا سأبقى وحدي هنا وعودوا غداً بما اتفقنا عليه من الوجوه الفرحة والكلام الطيب الغني بالمعنويات.

لم نوافق على تركه وحيداً، فغادرت النسوة مع هديل وحيّان، وبقينا نحن الثلاثة، آه ما أطيب هذا الرجل وما أرقَّه لقد تعامل معنا كالأطفال مرة، فجلب لنا الطعام والماء والحلويات ورغبنا بأكلها، وتعامل معنا كرجالٍ تارةً أخرى في مجمل الأحاديث التي تُعنى بالصحة والمستقبل والمروءة والهمة، مضى الوقت مع حديثه كغفوةٍ صغيرةٍ، هدأت معه أعصابنا المتوترة، وارتاحت معه أجسادنا المتعبة، وما أفقنا على أنفسنا إلا وهو يوقظنا بحركاته المعهودة باللطف من (مسح الرأس، ولمس اليد) وكلامه النبيل (حبيبي وليد، حبيبي علي، هيّا يا ولديّ).

سمح لنا الطاقم الطبي بالمكوث لثوانٍ معهما بالدور ومن دون كلام، يدخل الواحد منا بابتسامةٍ صامتةٍ عريضةٍ من

ابتسامات الحماسة والمعنوية، فيلمس أيديهما ويخرج باكياً وشاهقاً من كثرة التأثر!

أكثر من أسبوع على هذه الحالة، إلى أنْ أتمّ الله فرجه، وسُمح لنا ولهم بالمحاورة والمسير بعض الخطوات، وطوال هذه المدّة لم نرَ أنا ووليد عدرا العُمّاليّة نهاراً، وقليلاً ما كنا نراها ليلاً وبالتأكيد بعد الثانية عشرة، كنا نتقصّد المشي من المفرق المؤدي إلى المدينة حتى الساحة الرئيسة، وهي مسافة تُقدّر باثني (كم) ابتغاءً للهواء النقي الخالي من رائحة المعقمات أو الأدخنة.

بقينا أكثر من خمسة وعشرين يوماً في المشفى وأعتقد أنني سمنت خلالهما كثيراً، فمعظم مأكولاتي قطع من الشوكولاته بأصنافها، والفواكه بمختلف نكهاتها، واللحوم بشتى أنواعها، وفوق ذلك جلوس دائم لا نشاط ولا من هم يتحركون، وفي كلّ يوم يمرّ أشعر بالسعادة أكثر لاقتراب موعد خروجهما بخير وسلامة، ولأني تآلفت مع الطواقم الطبية، عدا ما تعلمته من قياس الضغط وضرب الإبر وطرق الإسعافات الأولية، وأعتقد أنني بمتابعة الوضع الصحي لهما وحفظ كلّ ما ينطق به

الأطباء حول الحالة أصبحت نصف طبيب، وعرفت متى يتوجب عليهما المشي أو الأكل وماذا عليَّ أن أسقيهما إذا ما تألم كلاهما؟ أو أيّ واحد منهما ومتى يجب أنْ أستدعي الممرضة ومتى يجب أنْ يحل الطبيب مكان الممرضة في الاستدعاء. وخلال هذه الأيام تطورت أحاديثنا، بحيث أصبحت أكثر توسعاً وأكثر استمتاعاً، وأصبحتْ قادرة على قتل وقت الانتظار الممل، وتحويله إلى وقتٍ مفيد، حصلنا من خلاله على معلوماتٍ ضخمة عن مرض الكلية مثلاً، سواء كان مصدرها المرضين أم الأطباء، وفي إحدى المرّات سأل وليد الطبيب سؤالاً ظنناه بغير موقعه وبغير وقته إلا أنّ الإجابة عنه شكلّت ما يُسمى بالانبهار، وخضنا بعدها في أسئلةٍ كثيرةٍ كان لكلّ منها محور بحثٍ طويل.

- كم كلفت هذه العملية يا دكتور؟

- إذا ما استثنينا أجور الطاقم الطبي، فكلفتها تعادل مليوني ليرة سوريّة.

- مليونا ليرة سوريّة؟!

- نعم تكلفت الدولة بمليوني ليرة سوريّة ثمن الأدوية، والدم، والحقن المُعدّلة لتوافق الأنسجة.

- إذا كانت عند الدولة هكذا فما كلفتها في المشافي الخاصة؟

- ليست كلّ المشافي الخاصة قادرة على إجراء عملٍ جراحي كهذا، والقادرة منها قد تطلب ما بين أربعة أو خمسة ملايين كحد أدنى.

- يعني هذه العملية التي لم تكلفنا ليرة واحدة في مشافي الدولة ما كانت لتُنجز دون أربعة أو خمسة ملايين في المشافي الخاصة؟!!!!

- نعم، وهي واحدة من عشرات العمليات المُكلفة، التي تتم في يوم واحد، كإحصائية تقريبية، وقد تبدو هذه التكلفة بسيطة إذا ما قورنت بتكلفة العمليات الضخمة كالقلب المفتوح، أو استئصال الأورام الخبيثة من الرأس، مع متابعة الجرعات الكيماوية، يا أعزائي وزارة الصحة وحدها تكلف الدولة أكثر من ٥ % من ميزانيتها لأنّ مريضها لا يتعرّف على أيّ شيء، من دخوله المشفى إلى خروجه بخير وسلامة، ونحن

من الدول النادرة جداً في طريقة التعامل الصحي المجاني على مستوى العالم.

أخذت أقواله من تفكيري كلّ مأخذ، بارك الله في هذه السياسة الصحية، ما كنا نفعل نحن وكثير من ذوي الدخل المحدود إذا ما ألّمت بنا هكذا مصيبة؟ يا ويلي كم كانت ضخمةً معاناة الناس؟ وكم كانت أعداد الوفيات عالية؟ الحمد لله، قريباً جداً سنخرج وقد ربحنا حياة والدي ولم نخسر قرشاً واحداً.

أثقل رأسي هذا الكلام الكبير، أفكار السياسة الصحية، والدخل المحدود، وإحصائيات الموتى، لا تناسب عمري، أنا أصغر من أنْ أتحدث بهذا الشأن، لقد كبرت بإقامتي الطويلة هنا كثيراً، وصرت أتحدث كما يتحدثون، لا أنكر أنني أفهم معنى هذه المصطلحات ولكن لا أشعر بها أو بوقعها على المواطن، وحتى كلمة مواطن كمصطلح مفهومة، ولكن غير مستوعبة كقيمة أو تجربة مَعِيشة بإيجابياتها وسلبياتها.

حين أفقت، لم أصدق أنني نمت بهذا العمق، شعورٌ ما راودني بأن الكلام الذي سمعته أو فكرت به ما هو إلا مجرد حلم! وإن كان من نوعية الأحلام غير المحببة.

وأخيراً قرر الطاقم الطبي الموافقة على إخراج المريض والمتبرع من المشفى لمتابعة علاجهما في البيت، ضمن النقاهة الطبية التي تضمنت إعفاءً عاماً من أداء أيّ عمل شاقٍ أو غير ذلك ولمدة شهر كامل مع المراجعة الأسبوعية الأكيدة، لتقدير مدى التقدم والتحسن والانسجام مع الوضع الصحي الجديد.

الفرحة أكبر من أنْ تستوعبها النفوس والأمكنة، وأكبر من أن تنحصر بالعيون، وأعظم من أنْ تُمَثَّل بالابتسامات والدموع، لقد أعادت هذه العملية الحياة إلى مسارها الطبيعي الصحيح فلا أنا يتيم ولا أمي أرملة، كما كنت أتوقع قبل إجرائها، ولا حيّان سيبتعد عن هديل ليقضي حياته كما يقضيها مرضى التوّحد ولا أبي سيودعنا، ويودع معمله الغالي، إلى حيث الوحدة الأبدية ولا كنّا سنفارق جيران العمر والبناية.

من المؤسف جداً أننا لم نستطع توديع جميع من ساهرناهم في مناوباتهم، وشاركناهم في أحاديثهم، واستفدنا جداً من علمهم ومعلوماتهم، ودَّعنا الموجودين فقط، وتركنا السلام أمانة.

توزعنا في السيارات المنتظرة، عائلة أبي الوليد بسيارة المدير، وعائلتنا كاملةً بسيارتنا التي قادها السيد نزار، وفي أقل من

دقيقتين تمايلت رقبتي، ليسقط رأسي في حضن أمي الحنونة، التي مسحت رأسي وقبّلته، وربّما دمعت عيونها إشفاقاً على تعبي المضني الطويل.

أفقت بعد قليل، على أصوات مزامير وأصوات عالية، ترجّلتُ من السيارة كما ترجّل الكثيرون، كنا أقرب الواصلين، هناك حادثٌ مُريع ولا تفصلنا عنه سوى بضع سيارات، حاولت مع وليد مساعدة الآخرين وتقديم أيّ نوع من أنواع الإسعافات الأولية، إلا أنّ الموت كان أسرع فسُجيت ثلاث جثثٍ لعسكريين أحدهم برتبة عميد ركن! ويبدو أنّ الآخَرين سائق ومرافق، لا تستطيع عيون أعتى الجبارين أن تصمد أمام منظر هذه الجثامين، سمعنا أحد السائقين يردد حكايته لظروف الحادث وكيف حاول السائق الابتعاد عن دراجةٍ نارية يقودها شابٌ متهور وبالاتجاه المعاكس للمسير النظامي!

أنا كنت أعرف هذا العميد لقد شاهدته مرات عدّة يودّع أولاده ويقبلهم بالقرب من باب المدرسة وكثيراً ما كان يلوح لوالدي وأحياناً يدخلان في حديثٍ صباحي قصير المدّة، خفيف الظل إذا ما تصادف وقوف سيارتنا قرب سيارته،

أومأت لوليد غامزاً إيّاه وواضعاً سبابتي على فمي بتجاهل الموضوع أو ذكر أيّ معلومة عن الحادث أمام المريضين مراعاةً لحالتهما النفسية، ومع أنّ أبي شاهد جزءاً من اللباس المموّه لصرعى الحادث إلا أنني غمغمت الموضوع بأنهم جرحى وقد ساعدني بذلك أصوات سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة.

كثافةٌ هائلة للزائرين من الجيران والعمال في بيتنا وبيت أبي الوليد، مهمة صعبة استقبالهم بهذه الأعداد، وما لمسناه من السيدين نزار وعبد السلام وزوجة كل منهما، كان أكثر من حب، ومن تآلف، إذ إنهما تبادلا الأدوار في المناوبة النهارية بين بيتيّ العائلتين، يستقبلون ويودعون الضيوف، ويشرفون على تأمين حاجات البيت من الخضار، والفواكه، واللحوم، والحليب، وما شابه، ودونما مقابل رغم إصرار والدي على دفع تكاليف العائلتين.

كلّ مساء، وبعد أن يُعّم جوٌ من الراحة، نلتقي أنا ووليد، نتحادث عن مجريات اليوم، وعن قصص الضيوف، إلى أن دخلنا مصادفة في حديث مضى على وقوعه عشرة أيام أو أكثر،

إنه الحادث، نعم هو بعينه، الحادث الذي قُتل فيه العميد وسائقه ومرافقه.

- رأيتك متأثراً جداً وأنت تجلس القرفصاء بالقرب من جثمان العميد، لقد كنت تبكي؟!

- يعني أنت لم تبكِ؟

- بلى، بكيت، المنظر كان صادماً للغاية، لم أرَ حتى في الأفلام الأمريكية دماء بهذه الكمية، لقد تذكرته حين كان يودع أبناءه، أتذكر؟ أظنه كان حنوناً للغاية! يا حرام لقد تيتّم أولاده، ولا أحد يعرف إذا ما كنا سنراهم في العام الدراسي الجديد!؟

- المؤسف أكثر من ذلك، أنهم ذهبوا ضحيةً لشابٍ تافه متهورٍ ويا ليته توقف ليطمئن عليهم لقد فرّ بفعلته.

- لا أظن أنه يستطيع الاختباء طويلاً، هذا إن لم يكن قد ألقي القبض عليه.

- تخيّل يا علي، ثلاثة من العسكر دفعت عليهم الدولة دم قلبها ماتوا بلحظةٍ واحدة! ويا ليتها كانت لحظةً من لحظات

حربٍ تدربوا طويلاً لخوضها! ماتوا هكذا! لأنّ شاباً أحمق أراد أنْ يُبرز تفاهته على مرأىً من الناس في الشارع وعلى الجهة المعاكسة! عمليةُ قتل ثلاثة عسكريين قد تكلف إسرائيل واستخباراتها ملايين الدولارات وربما أعواماً من التخطيط وكثيراً ما يفشلون، ليأتي هذا الأحمق فيقتلهم في ثانية! ويفرّ كأنه لم يرتكب إثماً، أو حتى لم يعرف إنه تسبب بحادث! مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد، عشرة مثل هذا السافل وتغلق إسرائيل أبواب استخباراتها، لعنه الله.

- لم تخطر في بالي أبداً هذه الفكرة! معك حق.

- هذا الحادث يُبكيك كيفما قلبّته، إنسانياً إذ فقد ثلاثة أشخاص حياتهم، واجتماعياً إذ تيتم عدد من الأطفال، وترمل عدد من النساء، ووطنياً إذ فقد الوطن ثلاثة رجال يملك أحدهم خبرة عالية في الدفاع عنه.

الأيام تجري بسرعة، آه، لقد مضى الكثير وأنا الآن استذكر مع كلّ ما أراه يحدث في حياتي أيام عدرا العُمّاليّة، لقد مضى على عملية الكلية لأبي سنوات عدّة، عجيبٌ هذا الزمن بمروره! والأعجب منه سخريته من كلّ العابرين

خلاله! كلّ شيءٍ يتغير، وما كان البارحة مختلفاً جداً عمّا هو اليوم، وسلفاً لن يأتِي في الغد ما هو كائنٌ اليوم، الثابت في الزمن الليل والنهار، والمتغير باستمرار نحن بطبائعنا وطبيعتنا، بأنفسنا، وأرواحنا، وأجسادنا، ومن يعتبر؟ وقائعٌ تحدث أمام العين، قصصٌ تُحكى للآذان من مصادر موثقة، تصدّعٌ يفاجئ القلب من فجائع تحدث، غرائب مَعِيشة وانقلاباتٌ مصيرية للنفس البشرية، تمضي في حياتنا كأيّ شيءٍ عادي! لقد تمرّس كياننا على الجمود والخمود، فما عاد يؤثر فينا مؤثرٌ! وما عدنا نلحظ انهيار الحائط الذي كنا نتدارى بحجارته ابتعاداً عن الشر، آه، الآن عرفت أنّ الإنسان وبكلّ إرادته وجبروته لا يستطيع إعادة الزمن حتى لو ثانية واحدة! سواء كان بمفرده أم بمجتمعه، وإنه وعلى الرغم من كلّ إبداعاته، واختراعاته، وسحره، ودعائه، وحمقه وذكائه المستخدم خيراً أو خبثاً، وقف عاجزاً أمام حلحلة هذا الموضوع حتى لو قيد أنملة! والغريب يقينه من ضعف قدرته، فلا هو قادرٌ على إرجاع الزمن وتصحيح أفعاله، ولا هو يسير بخط لا يندم بعد عبوره على شيء اقترفه، وما أكثر العبر وأقل الاعتبار، وحلها إذا قدرت على الحل.

لا أدري لماذا أفكر بهذا الشكل!؟ أنا لم أكن كذلك، أنا مثلي مثل أيّ سوري يحيا لسعادة يومه، ويعمل لتأمين غده، يبدو أنّ حياة السوريين كلها قد تغيرت، ويبدو أن السوريين كلهم يدعون اليوم لإعادة ما سلف من الزمن، الزمن الذي لم نشعر بقيمته إلا الآن وأقصد بالآن اللحظة التي فقدنا فيها الأمن والأمان، فقدنا فيها الحب والألفة، فقدنا فيها التلاطف والسلام، فقدنا فيها الإحساس بالآخرين ، الطفل نمسح رأسه ونقبل يده، الرجل كبير السن نجلّ ونحترم، المرأة نعينها ونساعدها، الصبية نعشقها ونتزوجها على سنة الله ورسوله لا على السنة المُبدّعة بريطانياً، سنةُ تشرشل ومحمد بن عبد الوهاب، السنةُ التي قلبت موازين التسامح بين البشر فلونت بالسواد بياض الفطرة الإلهية، السنة التي رفعت راية الله نفاقاً وزحفت بجموعٍ وحشية لا غاية لهم سوى الغوغائية، جموعٌ وجدوا في الكثرة سترة، وفي القوة نفعاً، وفي الإثم عزة، وفي الاغتصاب آيةً وفي الذبح سُنّةً!!.

كيف صار كلّ هذا؟ أنا ما تركت البلد كثيراً، صحيحٌ أنني سافرت لأدرس هندسة البترول في البلاد التي درّستْ والدي،

وكنت أتوقع أن أعود لأرى بعض التغيير في الشوارع والأرصفة، في كثرة السيارات والازدحام أو ألمس لمس اليد كما يُقال زيادة المحسوبيات، كهذه التي أرسلت من هم أدنى تحصيلاً في علامات الشهادة الثانوية إلى ألمانيا لدراسة العلوم النووية وأُرسل أنا خجلاً إلى روسيا لدراسة هندسة البترول! بينما لا يُرسل وليد إلى أيّ بلدٍ في العالم على حساب الدولة مع كلّ ما حصّله من العلامات وكانت حصته الهندسة المعمارية في جامعة (الفرات) دير الزور!!! كنت أتوقع أن أعود لأرى بعض الشحوب على وجه أبي وأمي والجيران الأعزاء، كنت أتوقع أن أعود لأسلم على صبيةٍ تُدعى ريم هي نفسها تلك التي كنا نحملها لنشتري لها ما تشتهيه من الشوكولاته والبسكويت، كنت أتوقع أن أعود لموعد إعطاء حبَّة الثامنة مساءً من كلّ يوم، الحبّة التي وصفها الطبيب برفيقة العمر لكلّ من المتبرِّع والمتبرَّع إليه، هذه الحبة التي ضبطنا لأجلها المنبه في أجهزة الموبايل التي تمّ شراؤها لنا في ذلك الحين لاستخدامها في الحالات الضرورية، توقعت أن أرى حيّان وأولاده من هديل، توقعت أن أجد أمي ملهوفةً وقد وجدت لي عروساً

تشبهها، وتوقعت أن يُفاجئني أبي بمحسوبيته وقد استلم إدارة معمل إسمنت عدرا العُمّاليّة لأعمل معه أو أعمل في معمل تعبئة الغاز الموجود أيضاً في عدرا هذا بالإضافة إلى توقعي تأمينه بيتاً يليق بالمهندس الجديد أولاً وبابن مدير معمل الإسمنت ثانياً، توقعت الكثير الكثير وصُدمتُ بالكثير الكثير، الشيء الوحيد الذي لم يخب في توقعاتي هو حبة الثامنة مساءً.

حبة الثامنة تذكرها يا وليد؟! تذكر كم ألغينا لأجلها مواعيد مع الرفاق؟ وكم قطعنا لأجلها أحاديثاً؟ وكم سعينا تحت المطر بحثاً عنها إذا ما تأخر توزيعها المجاني؟ تذكر يا وليد تلك الرابطة التي صنعتها تلك الحبة بين العائلتين وبين الطابقين؟ تذكر يا وليد كيف تغيرت سحنة وجهينا عندما قدمنا أوراقنا للبعثة الخارجية وتذكرنا حبة الثامنة؟ كان صعباً علينا مجرد التفكير بأننا لن نشرف على إعطائها لوالدينا، تذكر يا وليد أول مرة رفضت فيها مجالسة أحد؟ كنت تبكي في غرفتك وحيداً! لم تسمح لأحدٍ برؤيتك على هذه الوضعية، أنا الوحيد الذي من أجله فتحت الباب، أنا الوحيد الذي رأيتك ورأيت دمعك، أنا الوحيد يا وليد الوحيد الذي قدّر ألمك وحزنك، الوحيد

الذي مسح دمعك، والوحيد الذي استطاع إقناعك بالخروج من البيت، تتذكر؟ كان هذا اليوم الأول في حياتنا ولم نكن فيه مشرفين على حبة المساء، لم ننسَ طبعاً، اتصلنا بهم من محل البوظة الشهير في دمشق، وبتنا ليلتها في نادي العمال كوننا نحمل بطاقة والدينا، تتذكر يا وليد ماذا قلت لي عن حلمك بالسفر معي؟ أنا أتذكر أنك قلت بالحرف الواحد: لو كتب الله أنْ يتحقق حلمي لكنت ضربت عصفورين بحجرٍ واحد، الأول دراستي والثاني بقائي معك في غربةٍ ستكون غاية في الروعة بصداقتنا وأخوتنا المتنامية يوماً بعد يوم، ماذا حدث يا وليد؟ بعد هذا اليوم كان انقلابك الجذري! حدث معك أشياء كثيرة غير مفهومة! أخفيت عني أحداثها وتفاسيرها! أنا لست غبياً وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بعائلتكم وبك أنت على وجه التحديد، تحاشيتَ مرات عدّة الجلوس معي منفرداً؟ كنت تخشى أن تخونك محبتك لي؟ كنت خائفاً من عمق صداقتنا؟ ومتأكداً من أنّ لسانك لن يستطيع مقاومة عيني وبمجرد أن تلمح خشيتي عليك ستفرط مسبحة لسانك بالذي كان وبالذي سيكون؟

آهٍ يا وليد لو تعرف كم جرحاً تفتحه حبة المساء، تلك الحبة الصغيرة، تخوض معي حرباً يوميةً، تستنزف مني أحياناً كلّ الليل، الليل الذي كنت أحييه مراسلةً معك عبر مواقع التواصل الاجتماعي، تلك الحبة الصغيرة، تنبش في أعماق قلبي، تريد إحياء أحقادٍ غير موجودة أصلاً! وعلى من؟ عليك؟ أقسم لك يا وليد وإن كنت أحادثك عبر الصورة، إنك لو قتلتني وبغضّ النظر عن طريقة قتلي فلن تستطيع لا هذه الحبة ولا غيرها أن تعثر على ذرة حقدٍ واحدة عليك أو على غيرك.

عبر الصورة!! عبر الصورة! أنا صرت أحادثك عبر الصورة! خطر في بالي يوم فاجأتني وفاجأت الجميع بأن سفرك خارج القطر سيكون قبل سفري، خطر في بالي بأننا سنتواصل ونتحادث عبر الصورة الحيّة والمباشرة عبر مواقع التواصل، وهذا ما كان ولكن لم يخطر في بالي أبداً أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه! أنا كما أنا وأنت عبارة عن صورة معلقة في خيمة عزاء! وبعدها ستُعلق على أحد جدران المنزل لأحدثك طويلاً، ولأقهر كثيراً وها أنا مع كلّ حبةٍ أفتح جبهةً مع ذكرياتي، لا تظنها سهلة، هي حربٌ ضروس، تشبه تلك

الحرب التي تتأجج في بلادنا يوماً بعد يوم، بلادنا هل تتذكر بلادنا؟ تلك التي عشنا فيها جارين، صديقين، أخوين، بلادنا نعم تلك التي في بالك، التي عشنا في مدينة صغيرة منها، مدينة بحجم الحب والألفة، مدينة بحجم الحضارة والتاريخ وإن كانت حديثة العهد بالبناء، مدينة بحجم الوطن، مدينةٌ استقبلتنا ضيوفاً أعزاء من اللاذقية، واستقبلتكم كذلك من ريف حمص وأسكنتنا كما أسكنت الكثير من العائلات القادمة مع أربابها العمال مجاناً، وأرجو أن تكون دقيقاً بالتعامل مع كلّ لفظة أقولها كما هي عادتك.

ربما تتساءل ما علاقة الحبة بكلّ ذلك؟ هي الأصل في كلّ شيء، وأعرف أنك بسؤالك هذا، تتناسى غير ناسٍ أنّ لهذه الحبة الفضل الكبير في انصهار العائلتين في بوتقةٍ واحدة حتى أصبحنا عائلةً واحدة في طابقين، لا سرّ بينهما، الكلّ يعرف عن الكلّ كلّ شيء، والكلّ يحزن ويسعد على السبب ذاته، والكلّ يُشجع على الدراسة بالأهمية ذاتها، والتودّد وعلاقة الحب الظاهرة ظهور الشمس بين حيّان أخي وهديل أختك.

حبة المساء يا صديقي، هي الاسم الذي اتفقنا على تسميته لحساباتنا الإلكترونية ومن خلالها تواصلنا كما لو أننا لم ننقطع.

حبة المساء يا صديقي، هي التي تجرحني الآن، صدّقْ وخذ لكلمة «تجرحني» كلّ معانيها، ولا تستغرب فأنا الشخص ذاته الذي كان يقول لك إن حبة المساء أجمل شيءٍ في حياتي.

حبة المساء يا صديقي، هي سبب الحرب الدائرة في سورية! كيف؟ أنا واثقٌ أنك تستهجن هذه الجملة وتنعتني كما كنت تكتب لي بعد كلّ نقاشٍ إلكتروني بـ«ابن خلدون» ملمّحاً إلى توسعي في شرح أيّ فكرة، كما كان يتوسع ابن خلدون في شرح علم الاجتماع، حتى وصلت به الأمور إلى التنظير واتهام معارضي أفكاره بما لا يليق به أو بهم، لا يا صديقي أنا الآن مقتنعٌ بأن كلّ ما سأقوله لا يصل إلى لب المقصد الذي أقصده، هل لك أن تقول لي كيف حافظت دمشق على قوامها ومكانتها رغم ما فيها من تنوع ديني ورغم ما فيها من تنوعٍ قومي هذا التنوع الذي تسبب في بعض

الحالات في محي دول وإمبراطوريات عن بكرة أبيها، بينما بقيت دمشق أقدم عاصمةٍ مأهولةٍ في العالم؟! هذا هو سرّ حبة المساء، الذي كان يجمع كلّ هذه المكونات في اجتماعاتٍ شبيهةٍ باجتماعاتنا يتحاورون، يتوافقون، أو يتعارضون، إلى أن يصلوا إلى ما فيه مصلحة البلد، ولو اتخذوا غير هذا الطريق لوصلت بهم الأمور إلى التقهقر، والتراجع، والضمور، وربما الاختفاء، والاستبدال بأقوامٍ ترصدوا تناحرهم، وحصلوا على ما يلبي أطماعهم بلا خسارة أو قتال.

بالحبة المسائية عشنا، وبها تابعنا حياتنا، وسنبقى كذلك مع استبدالٍ صغيرٍ للأدوار كما جرت العادة بين السوريين والحبة، مرة هي تحييهم، ومرة يدفعون حياتهم ثمناً لبقائها رمزاً ينبض بالحياة!

حبة المساء تختتم يوماً شاقاً من الجلوس والقيام، من الصمت والكلام، من الاستقبال والتوديع، من الأحاديث المسلية والصمت الحزين.

نحن في مجلس عزاء، غير كلّ المجالس، مجلس عزاء لن يتكرر، أصلاً مجرد حدوثه معجزة من معجزات هذا البلد!

ويسعدني جداً أن أحدثك عنه وإنْ كنتَ جزءاً لا يتجزأ منه، وشاهداً على كلّ المجريات التي تحدث تحت سقفه، وراصداً لكلّ الوجوه القادمة والمغادرة، وسامعاً لكلّ الأحاديث الجهرية والمهموسة.

كان ذلك في اليوم الثاني للعزاء، قد يظن المرء أن لا مجال للتفكير في جوٍ شبيهٍ بهذه الأجواء، إذ إنك معرضٌ في كلّ دقيقةٍ للقيام وللجلوس، للمصافحة وللتقبيل، إذا لم يكن مرة فأكثر، وهذا صحيح إلا أنّه لا يمنع من الشرود ولا يمنع من استرجاع شريط ذاكرةٍ مبنية على الحب والألفة.

الخيمة منصوبة أمام البيت، وأنا أقف مستقبلاً مودعاً، أراقب وأتابع، أتسلى برؤية المارّة من غير المعزين، أحاول عصر ذهني في معرفتهم أو تشبيههم لبعض معارفي، دون استشارة أحد من أولاد الأقارب وفجأة يأخذني مشهد طلاب المدرسة من حالة وجودي الحقيقي كرجلٍ من دمٍ ولحم، إلى حالةٍ شبيهةٍ بحالة الطيف! أفعل كلّ ما يجب عليَّ فعله مع المعزين ولكن فكري يهيم في جوٍ ثانٍ بعيدٍ كلّ البعد مكانياً وزمانياً، جوّ أعادني إلى اللحظات التي كنت أجهّز فيها أوراق سفري

للدراسة في روسيا، ومن أجل ذلك أكثر والدي من إجازاته أو من تواجده في البيت بغاية تعليمي بعض القواعد الضرورية للتعامل مع اللغة الروسية، وليشرح لي بعضاً من نواحي الحياة الاجتماعية لقاطني الأراضي الروسية، سواء كانوا من السكان الأصليين أم من المهاجرين الدارسين من الدول التي كانت تكوّن بتجمعها الاتحاد السوفييتي.

معظم الدروس كانت على الشرفة المطلّة على الساحة الرئيسة للمدينة، ولطالما كنا نوقف حوار الدرس لمشاهدة حيّان بلباسه الأزرق وهديل بلباسها الزهري وحجابها الخفيف غير المتشدد، أنظر إلى عيني والدي المتأملتين بحيرة وفرح حركاتهما، ثمّ أتلقى تلك النظرة المتبعة بإشارةٍ من يديه أنْ لا حيلة لديه في التصرّف مع هذا الحب المبكر قدومه، القوي إيقاعه، الواضح سطوعه، المستعصي على الجدال بشأنه، المبارك بمن حوله من أهل الطابقين والبناية، ذكرني مشهد الطلاب بكلّ اللحظات التي بحثنا فيها مصير هذه العلاقة بوجود وليد، تأييده المباشر والقوي للأمر كان محط نقاش بيني وبين أهلي الذين أكدّوا أنَّ هذا التأييد ما هو إلا نقل حي ومباشر لرأي

والد ووالدة هديل، ومع أنّ الوقت ما يزال مبكراً للحديث في تطور هذه العلاقة إلا أنّها كانت محفزاً قوياً تمّ عرضه على حيّان شريطة تفوقه في الشهادة الثانوية.

- من حسن حظي أنني لن أضيّع سنة كاملة في دراسة اللغة، وحين يُنهي علي دراسته الجامعية أكون أنا أنهيت دراسة الدبلوم.

- وهل تحددت وجهة سفرك؟ أخبرتنا بأنّ أصدقاء الجمعية الجدد سيحددون ذلك حسب المنح المقدمة لهم من الدول العربية.

- نعم تحددت وجهتي وتحدد الفرع الدراسي الذي سأقضي فيه بعثتي، شيءٌ واحد يكسب فيه علي الأفضلية، السماح بالمغادرة السنوية.

-على مهلك يا بني، على مهلك، أهم حددوا لك ما ستدرس!؟

- نعم، هم بالنهاية يريدون أن يطوروا جمعيتهم، لتتوسع بالقدر الكافي، بحيث يستطيعون الاستغناء عن إرسال البعثات، وما تكلفه البعثات.

- أنا لم أتدّخل في هذا الموضوع من الأول، وأشعرتكم أنّ الماء تجري من تحتي دون دراية، ولكنني وأمام بيت أبي علي إن لم تعجبني الدولة، ولم يعجبني الفرع فلن أسمح لك بالذهاب، هات تفضل؟

- السعودية، وسأدرس الشريعة الإسلامية.

- ماذا قلت يا عين أمك؟ السعودية وستدرس الشريعة الإسلامية!؟ تتفوق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء لتدرس الشريعة الإسلامية! وأين؟ في السعودية! هذه بلادٌ لا تدرس الشريعة الإسلامية وإنما الشريعة السعودية، الشريعة التي تمنع المرأة من قيادة السيارة، الشريعة التي تكفّر غيرها طبعاً باستثناء حملة الجنسية الأمريكية! فهؤلاء أسياد أينما حلوا حتى على المسلمين، تفضلي ست أم وليد حليها كم مرّة منعتني من التدّخل بقولك: (لقد كبر وليد ويعرف مصلحته، كبر وليد ويعرف مصلحته) أنا غير موافق، إذا لم تُتح لك فرصة البعثة اليوم فالسنة القادمة، ثمّ ماذا يجري عليك؟ أنت تدرس هندسة معمارية يعني هندسة الذَّوَّاقة! أصلاً أنا ضد سفر علي إلى روسيا مع أنه سيدرس هندسة البترول لا لشيء

سوى لأنه سيترك هندسة المعلوماتية الهندسة الأرقى في كلّ فروع الجامعة، بالنهاية الغِ الفكرة من جذورها ولا أريد لهذا الباب أن يُفتح، مفهوم ست أم وليد؟

مناورات طويلة، استجدى فيها وليد كلّ أصدقاء البناية، وكم من مرة اجتمع رجلٌ أو اثنان في بيتهم للغاية ذاتها، يخرج السيد نزار ليدخل أبي، ويخرج أبي ليدخل السيد عبد السلام، ويخرج لتدخل أمي برفقة السيدة جنان أو زوجة السيد نزار، الحديث ومضمونه وقشرته وتلافيفه السماح لوليد بالسفر! والاستعصاء لم يُحل وموعد السفر يقترب أكثر فأكثر إلى أن قرر الرجال الضغط بكتلة واحدة على والده، أنا الوحيد المؤيد للعم، تنشئة وليد ستصعب عليه الحياة في السعودية، الحياة في عدرا العُمّاليّة تختلف ١٨٠ درجة عن الحياة في جدة أو الرياض، والتعامل مع المجتمع الذي كان يحل فيه ضيفاً علينا يختلف مليون درجة عن التعامل مع جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صحيحٌ أنني لم أدلِ بدلوي ولكنني كنت أضمر أمنية قلبية بأن يخسر رهانه على الضغط الجماعي، أنا أكثر الناس معرفة به، سيهدر الكثير من عمره وسيعود خائباً، لن يستطيع العيش

هناك، طبيعته وطبعه لن يألفا حياة المجتمع السعودي، قلت وأنا أدخل البيت معهم: يا رب أفشلهم في إقناع أبي الوليد.

للأسف استطاع الجمع كسر تصميم أبي الوليد الذي أعلن وبصراحة موافقته الإجبارية قائلاً:

- يعز عليّ جرُّ ولدي إلى مقصلة الفشل بعد كلّ هذا التفوق، سأنظر إليكم دائماً على أنكم السبب، يوماً ما سيعود مزهواً بشهادته المتميزة وبماله الوافر، ولكنه لن يعود لي أنا سأخسره، أتمنى من كلّ قلبي أن أكون على خطأ ولكنني أعرفه وأعرفه بعمق، سامحكم الله عرفتم قيمتكم فضيعتم بها ولدي، وأنا سأكون الخاسر الأكبر، مسموحٌ لك السفر على غير رضى مني فحاول أن تسافر «وليد» وتعود «وليد».

- تحوّل الحديث بإرادة الرجال إلى المزح الهزلي ثمّ وضعوا طاولة الطرنيب وبدؤوا اللعب! عيناه كانتا تحترقان ندماً على إعطائه موافقته ولكن كما يقول المثل (مجبرٌ أخاك لا بطل).

سبقني بالسفر بعد أن أوصاني وأهلي بالعناية بأهله وبأخته، ثمّ سحبني من يدي وأدخلني غرفتي ليقول لي:

- قد لا نلتقِي إذا ما التقينا إلا بعد عمرٍ طويل، أختي هديل أمانة في عنقك إلى يوم الدين وإذا لم يكن حيّان جديراً بها فأبعده عنها وإلا فأنا موافقٌ وبلا إذنٍ أو دستور على خطوبتهما بعد الانتهاء من الشهادة الثانوية.

- ما زال الوقت مبكراً على هذا الحديث.

- سيمضي العمر بأسرع مما تتوقع، المؤسف، أنني لن أستطيعَ رؤيتك بعظمك ولحمك إلا بعد خمس أو ست سنوات، فكن على خير واستر أنت وأهلك ما بدر مني أنا أحبّك لأنك صديق العمر، وقسماً لن أنساك، ولو تقطعت بنا سبل اللقاء فلن أقطعك، سيكون حبي لك أقوى من جغرافيا الزمان ومن زمن الجغرافيا، أنت الأخ الذي لم تلده أمي، ولكن ولدتهُ الحياة، لا تنسَ حبة المساء ستكون هي همزة الوصل بيني وبينك، ولا تنسَ وصيتي(هديل، هديل، هديل).

يرجعني وجهٌ من وجوه المعزين إلى حالتي الوجودية، إنه السيد عبد السلام، يسلم بودّه العميق، ويقبلني بحنانٍ وشوق ثمّ يتجه إلى حيث يجلس أصحاب حبة المساء، يحدق طويلاً بعيني أبي الوليد الباكيتين، حتى إنه يُلفت النظر، ثمّ يحتضنه

ليبكي على كتفه، يترك الأول، ليبكي على كتف الثاني، أقدّر هذه الأخوية بين رجال عدرا العُمّاليّة المتقاعدين كأبي وأبي الوليد أو المُهجّرين كالسيد عبد السلام، أنا على ثقةٍ كبيرة بأنّ مناحةً ما ستبدأ بعد قليل، كلٌّ يتذكر فقيده، ألم أقل لكم أنّ تحت سقف هذه الخيمة معجزة من معجزات هذا البلد!.

أعود لمكاني وعلى كرسيي الموضوع في أول الصف، ذات الوجه الذي أعادني لحالتي الوجودية يشرّدني؟! وهذه المرة إلى مكانين الأول حقيقي في بيته حيث كان لقائي الأخير بعائلته، بكت زوجه كما لو أنها أمي! بكت بحرقة الذكرى، حيث كنت صغيراً بعمر الخامسة وكانت هي صاحبة الصيدلية الوحيدة آنذاك، من يدري كيف احتفظت هذه المرأة بذكريات دخولي مع وليد لشراء دواء ما وتسليتها بالحديث معنا؟ ثمّ منحنا البسكويت المدّعم وتحميلنا السلام إلى أمهاتنا، جنان امرأةٌ شكلها سوري طبيعتها سوريّة، قلبها طيبٌ سوري مُعتق، حقيقةٌ هي أكثر امرأةٍ متحضرة رأيتها في حياتي، كلّ كلمة ينطق به فمها نسغٌ حضاري، كلّ تصرفٍ يصدر عنها نَفَسٌ حضاري، تبقى أناقتها حديث كلّ المجالس النسائية والرجالية، أمّا المكان

الثاني فافتراضي وعبر مواقع التواصل الاجتماعي حيث شغل الحديث عن هذه العائلة أوقاتٍ طويلة من محادثاتنا الثنائية، أقصد أنا ووليد، أتمنى لو تُتاح لي حالتي المتنقلة بسرد تفاصيلها، لكن وللأسف، فكلما أعلنت بداية الحديث أتفاجأ بوجهٍ جديدٍ فيغيّر حالتي كهذا الوجه الذي حفظناه جميعاً وإن لم يكن من أوجه السكان المقيمين في عدرا إنّه السيد حسن حسن شقيق جارنا نزار حسن، اللاعب الأساسي في الطرنيب إذا حضر، وما أكثر زياراته وحضوره! الشاب الجامعي، المثقف، الفلاح، خريج جامعة دمشق قسم التجارة والاقتصاد، حبيب الكلّ، صديق الكلّ، يأتي الآن ليعزينا! وليتلقى مني التعازي باستشهاد أخيه وعائلة أخيه بالكامل! اعتذرت منه لعدم تمكني من زيارته في قريتهم المطلة على بحر جبلة، يعزي الرجلين ويومئُ لي بغمزةٍ من عينه، ليسألني عن غربتي ودراستي، عن أحوالنا كعائلتين، عن أشياء مضت، كانت من حلاوتها تستقطب النجوم لمجالستنا! وصارت تُنفِر الشياطين من فظاعتها، احتسى ما في قعر الفنجان من القهوة المُرّة، وتوجّه بالسؤال المُنتَظر:

- علي فسّرْ لي ما الذي يحدث؟ أنا أفهم ما كنتم عليه في عدرا العُمّاليّة، حتى إنني ضربت المثل بكم وبمحبتكم وألفتكم، كيف صارت هذه الأحداث حتى وصلت بكم الأمور إلى خيمة العزاء هذه؟ الخيمة العجيبة طبعاً! صورتان أعرف أصحابهما معرفة أكثر من عادية، الأولى لأخيك الملازم أو الملازم أول كما كتبتم تحتها والثانية إن لم يخب ظني لوليد! وإن تغيرت ملامح وجهه عليَّ كثيراً، كيف حدثت هذه الجيرة في عدرا وفي الخيمة؟ ما السرّ؟ أنت تعرف محبتي لكم جميعاً، والفضول يأكلني لسماع التفسير، وأنا أسمع تفضل؟

- أتمنى أن أحادثك، أريد أن أخرج من صمتي، مجروحٌ أنا، والكلام دوائي، مذبوحٌ أنا بشوقي لأخي، بمحبتي لصديقي، بغربتي، بالمفاجآت التي لم أتوقعها، بالإنسان يتحول إلى قاتل، بالقاتل يتحول إلى ملاك، بقصة تحولت فيها الطيبة إلى حقدٍ، وحلاوة الأيام إلى مرارة، عليّ أن أتجرعها غصباً عني ولا خيار ثانٍ أمامي، لقد آساني ما آلت إليها حالة السيد نزار وعائلته، كنت في روسيا أقدم امتحاني الأخير عندما تكالب

الإرهابيون على عدرا العُمّاليّة، ظننتها بمنأى عن مثل هذه الوحشية! كلّ شيءٍ أصابني بالخبل، ولولا تمكني من الاتصال مع أهلي لفقدت السيطرة على أعصابي وعقلي، لن يُتيح لي الظرف والوقت بسرد الحكاية كاملةً، وضع هاتين الصورتين بجانب بعضهما استهلك آلاف السنين من عمر البلد، وتعاون على وضعهما ملايين البشر، وإن كنت تريد معرفة ما جرى فعليك بالصبر حتى انتهاء هذا العزاء، وانحسار هذه المحنة، أنا أعرف إنك تحترق لمعرفة ملابسات استشهاد السيد نزار وزوجه وأولاده الثلاثة، وإنّ أيّ معلومة بهذا المنحى ستوضح صورة الحادث المُشوشة، إذ لا يمكن للمرء أن يتصرف كما تصرّف أخوك! ولو لم يقع بين أمرين خيرهما مرٌّ (الموت ذبحاً بسكين المذلة أو الموت انفجاراً بقنبلة العز والفخار) أنا أعرف ملابسات الحادث وبالتفصيل وستعرف إجابات كثيرة على أسئلةٍ أوجعت رأسك ورأس المجتمع السوري عامةً، إذ إن ما فعله أخوك انتشر انتشار النار في الهشيم، وكان أول ما سمعت به بعد هجوم قوى الإرهاب على عدرا العُمّاليّة، لقد تناقلت وسائل الإعلام الروسية هذا الخبر كخبرٍ رئيس في نشراتها

الخاصة بالوضع السوري، الصبر ليومين أو ثلاثة لن يغير في القضية، عندما نغلق هذه الخيمة سأفتح الحديث، وعلى مسامع الجميع ليعرف الكلّ ما لهم وما عليهم، ما كان على أبنائهم وما كان لهم، الجميع مفجوعٌ الآن، ولا إمكانية لاستيعاب حكايةٍ متشعبةٍ كتلك التي أصابتنا وأصابت أقارب من وُجِدَ من الأهالي في عدرا العُمّاليّة.

- حسناً إن كان كذلك فلي موعدٌ معك في بداية الأسبوع القادم، أبقى الله لكم حياتكم ورحم شهداءكم.

كلّ وجهٍ يحمل مأساةً، وكلّ عينٍ تُخزّن في مآقيها ما يكفي لإحداث طوفانٍ بحاله، وجعي على القلوب، أين كانت؟ وأين صارت؟ كيف كانت تغفو قبل العيون؟ وكيف صارت لا تنام وإنْ نامت العيون؟ حسرتي على البصائر، وكيف كانت تستخلص ذرات الطيبة، والمروءة، والإنسانية من قلوب القساة والجبابرة وكلّ ظنونها النوايا الحسنة، والصافية؟ وكيف صارت تتحسس الخوف والغدر من كلّ الناس، وإنْ كانوا من ذوي العهد القديم، بالطيبة والعاطفة والحنان.

وجع قلبي مقسوم على شقيقين! الأول ابن أمي وأبي والثاني ابن عمري، وصداقتي، وجيرتي، آه... روحي موزعةٌ على أهلٍ أحبة، وعلى معارفٍ ربطتني فيهم المودة.

لو كنت أعلم ما يستقبلني بنهاية سفري ما سافرت، حتى لو نلت علم السموات والأرض، وما ينفع العلم وفي القلب جرح؟ وفي الروح ثلم؟ وعن العيون يغيب شابان هما كل القلب وكل الروح؟

أنا لا تخدرني الصور كما تخدر غيري، ولا تخفف من وطأة الفراق وإن ظلت ماثلةً أمامي، وكيفما أدرت وجهي، بل هي على العكس كبريتٌ للنار المشتعلة، تؤجج دائماً آهاتي، وحسراتي، وتساؤلاتي عن الحقيقة، هل ما مضى من العمر كان مجرد وهم؟ هل العمر الذي نحياه حقيقة؟

كيف لي أن أبكي في آنٍ معاً على قاتل أخي ومقتول صديقي؟ كيف لي أن أتذكر في لحظةٍ واحدة الظالم والمظلوم؟ وفي الوقت ذاته أترحّم عليهما بالمصداقية ذاتها؟ وأطلب المغفرة لروحيهما؟ وأعدُّهما شهيدين بمرتبةٍ واحدة؟ كيف لي وبشكلٍ آلي التوجه إلى صيدلية البيت لإخراج حبتي المساء؟ واحدة لأبي المفجوع

بأخي وشقيقي وأخرى لأبي الوليد المثكول بأخي غير الشقيق والمولود من غير أبي ومن غير أمي؟

الحرب في الميدان، حرب سجال، تتباين فيها النتائج بين لحظةٍ وأخرى، وتنقلب فيها الموازين أمّا حربي تحت الخيمة، فهي حرب الخسارة والهزيمة، لا انتصار لي في أيّ معركة من معاركها! أنا أصلاً أواجه من أودّ هزيمتي قبالته! هذا أخي وهذا أخي، فعلى من أريد انتصاراً؟ أتعجبكَ حالتي يا وليد؟ أتعجبك حيرتي يا حيّان؟ صورتان كلّ منهما تريد ناصراً وانتصاراً! ليسجل صاحب كلّ صورةٍ نصراً فأنا معه، أقصد أنا معكما فافرحا بهزيمتي، بقلبي المكسور وجعاً وبعينيَّ الدامعتين حزناً.

يقترب وقت الظهيرة، وشيئاً فشيئاً يقلّ عدد المعزين إلى أن نصل في ذروته إلى بقاء المقربين من العائلة، وشخص أو اثنان من هؤلاء الرجال الذين يجدون في خيمة العزاء فسحة للهروب، من ضجة أولاد البيت، ومن طلبات سيدته، وقتٌ يُتيح لي الجلوس على الأريكة «الكنبة» المريحة والتحديق بالصورتين تحديقاً يبعث بالنفس إلى الهيام، بما حفظته ذاكرة

الأيام فأعود معهما طفلاً على شاطئ البحر يصنع القلاع الرملية ويهدمها، يبلل جسده بالمياه ظناً منه أن الجلوس على الرمل حيث تغطي المياه فخذيه وخصره سباحةً تستحق الإسراع إلى أقرب أمٍ للتنشيف ولتناول عروسة (سندويشة) الزعتر مع خيارة كبيرة أو قرص بندورة، أو أكون مع وليد في الحرج المجاور لقريتنا مرافقين لخالي الذي يهوى الصيد، فنرجع كما يرجع القياصرة من معارك النصر مزهوين بما نحمله على جنبنا من العصافير المُصطادة ببندقية الخال، وقد يطول وقت الظهيرة لأعود فيه لأيام الدراسة، وكيف كنا نمارس هواية التمثيل؟ بجعل حيّان وهديل طالبين وأنا مدرسٌ لمادة الرياضيات، حيث أرسل حيّان إلى المدير، الذي هو وليد بغية تأديبه وردعه عن المشاغبات المفتعلة أصلاً لإنهاء هذه التمثيلية، ولتركهما يلعبان بما يناسب سنهما، وعقلهما، وانسجامهما، جميل هذا الوقت لو لم يكن له نهاية، نهايةٌ أخرج فيها من عالم الشرود حيث نحن أطفالٌ حقيقيون إلى عالم الواقع حيث أنا شابٌ شبه غريبٍ عن هذه الذاكرة وحيث إنَّ من كان يشاركني بها مجرد صور!

مضت أيام العزاء بكلّ وجوهها، ببعض دموعها، بحبتيّ المساء الأبديتين، بما كان من أحداثٍ قبلها، بصورتيها اللتين عُلقت كلّ واحدةٍ منهما في طابق، وأقصد هنا بيتنا القروي المؤلف من طابقين، حيث يقطن أهلي الطابق الأرضي الواسع، ويقطن أبو الوليد مع عائلته الطابق العلوي الصغير، أو الطابق الذي سكنه حيّان وزوجه هديل، نعم، هديل المفجوعة بما لا تقدر على حمله من المصائب، وكأن الدّهر حط رحاله الثقيلة على قلبها، فشرّد لها أهلها ورملّها بقتل زوجها وأوجعها بتوحّش أخيها وبمقتله، ثمّ أكمل عليها بآلام الحمل وتورم الأطراف السفلية نتيجةً لتراكم الأملاح، وأيّ مصيبةٍ تفوق أن تكون المرأة على موعدٍ بولادةِ صبي تيتم سلفاً؟ وكان خاله سبباً رئيساً في مقتل أبيه؟

على غير عادته في احترام المواعيد تأخر حسن، في سالف الأيام كان صغيراً بعمرنا، يعدنا بالقدوم من ريف جبلة، لننتظره مع السيد نزار على مفرق مدينة عدرا العُمّاليّة المُطلّ على أوتوستراد اللاذقية دمشق، ليفي بوعده، وليسألنا فور نزوله:

- إن شاء الله لم أتأخر؟ ولم تنتظروا طويلاً؟

فنجيبه ضاحكين:

- ما شاء الله بيغ بن.

- الغائب عذره معه، فلا تشغل بالك بانتظاره، وإن كان معك رقمه فاتصل به.

- ليس معي رقمه وإن كان معي فلن أتصل! همه على قدّه، إنْ شاء المجيء فأهلاً وسهلاً وإن لم يشأ فعذره حاضر، وهل من أحدٍ في العالم يفقد أخاه وعائلة أخيه بهذه الطريقة ويبقى في عقله ذاكرة لموعدٍ عابرٍ كموعدي معه؟

- كان الله في عونه، وعون أهله، وأقاربه.

- كان الله في عوننا جميعاً.

يرنُّ الجوال في يدي بنغمة الرسالة، فأقرأ الرسالة مُبتسماً:

- ابن الحلال عند ذكره يبان، هذه رسالة من حسن، ويبدو لي أن هذا رقمه.

- ما محتواها؟ اعتذارٌ عن التأخر؟

- نعم، ولكنه اعتذارٌ اضطراري، اسمع يا أبي ما قاله في رسالته الطويلة: مساء الخير، أعتذر عن موعدي معك، لأنّ

إجازتي انتهت، ولم يمدد لي القائد بضعة أيام بسبب تردّي الأوضاع، وتزايد الإرهابيين في محيط المدينة، اعذرني، إذ إنني لم أخبرك بالتزامي ومنذ ستة شهور تقريباً في الخدمة الاحتياطية العسكرية، وأنا الآن في مدينة دير الزور، حيث التغطية لا تسمح لي بغير الرسائل، سلامي إلى الأهل، نلتقي في أول إجازة؟ مازال حديثك يدور في فكري وخاطري، حسن حسن.

رسالة حسن، خلقت لدى ذهني حالة اضطراب، وخلقت لدّي حالة مقاومة، ساعدتني في المحافظة على توازني، الاضطراب كان ناجماً عن الخوف، والقلق، والمصير الذي قد يلاقيه، وكان ناجماً أيضاً عن فكرة المقارنة العفوية بين تصرفه بالالتحاق الفوري بالخدمة الاحتياطية، وتصرف وليد المعاكس مئة بالمئة، بينما جاءت حالة مقاومتي نتيجةً ليقيني بأن الحديث عن مجريات الأحداث قد يُؤجْل وقد يُلغى إذا ما حدث - لا سمح الله - شيءٌ ما لحسن. وبالتالي تكون راحتي التامة، من استرداد كميات هائلة، لأوجاعٍ أشعرتني في لحظةٍ ما بالدمار الداخلي، أو العجز عن فعل شيءٍ ما يعيد الحياة في عدرا العُمّاليّة إلى سكّتها الطبيعية.

لمتُ نفسي كثيراً على هذا التفكير، هذه أنانيةٌ ما بعدها أنانية، أنا أعرف الكثير من الظروف التي أحاطت معارفي وأحبابي من سكان بنايتنا، الظروف التي بدأ معها ليلٌ عريض مكفهرٌ ولئيم، ليلٌ زحفت فيه حشودٌ من أحقد إرهابيي العالم لتمارس أعمالاً تعجز عنها شياطين الأرض بل وتظهر فيها الشياطين قاصرةً مقصرةً، حشودٌ سبقت إبليس الأول في ابتداع فنون الذبح، والخطف، والاغتصاب، هالني جداً ما حدث يومها، وإنْ كان من واجبي التستر احتراماً لمشاعر المجروحين فالأوجب الحديث لفضح الذابحين وإلا ما كان لعذابي سنتان وأكثر مع وليد أيّ فائدة، وإنْ نمتُ هذا اليوم دون أن أقول الحقيقة، فهذا لأني اعتقدت أن الصديق حسن قادم ، أمّا وأنّه لن يكون معنا فهذا لن يُثبطني ولن يعفيني من إفشاء ما أعرفه، على هذا عقدت العزم، ولهذا كان اتصالي الصباحي بالسيد عبد السلام، راجياً منه الحضور إلينا مساءً برفقة ريم، ابنته الصغيرة ربما، أو التي توقعت رؤيتها صبيةً ولا كلّ الصبايا، وبعد ذلك وعلى الفور، اتجهت إلى غرفةٍ زائدةٍ في طابقنا فوضّبتها كما يوضِّب الرجال غرفهم، وأعلنت على الملأ المجتمعين في حديقة

البيت، قدوم السيد عبد السلام وابنته، ومشيئتي بإقامة أسبوعية لهم بيننا، لم يعرف أحد منهم سبب رغبتي تلك، أو أنّ أحداً ما لم يعنهِ ما قلت، فلا هذا وقت استقبال ضيوف، ولا هذا وقت تفكير بمغزى إرادتي من جلبهم، أخرجت من حقيبتي الكمبيوتر المحمول، وكاميرا روسية عالية التقنية من (زينت) الماركة الأشهر في العالم، واختتمت إخراجي بجهازٍ صغيرٍ يُدعى (جهاز الإسقاط) كنت أستخدمه في روسيا وأنا أشرح للطلاب تحضيراً للدبلوم أو الماجستير.

ريم أحلى من كلّ توقعاتي، ابنة أمها قدّاً وأناقةً، حتى في لباس الحزن الأسود، رسمت لحضارتها خطوطاً عريضة، ابنةُ أبيها هيبةً ووقاراً، ودّاً وألفة، نقش الحزن على صفحتي عينيها دمعةً، ردتني إلى أيام تعارفي الأول مع أهلها، أي قبل ولادتها بثماني أو تسع سنوات، لم تستغرب اجتماعنا، فهي تعرف الجميع معرفة الحب، ولطالما اجتمعتْ معهم في غير مناسبة، هي تعرف أنْ حزنها متبادلٌ مع حزن الجميع، هذه كارثةٌ سوريّة، عمّتْ بغيمها الأسود فلم تستثنِ أحداً، وما مجيئها إلى هنا إلا عن رغبة في حمل همٍّ أو رغبة في توزيع همٍّ على أناسٍ

طالما حملوها، وفرحوا لفرحها طويلاً، لم أرها بهذا الصبا من قبل، رغم أنني قد رأيتها مرات عدة من خلال إجازاتي، هذه المرة مختلفةٌ جداً، كبرت ريم في سنتين أكثر مما كبرته في ثماني سنوات، ما شاء الله، جمالٌ أسطوري وأدبٌ راقٍ، حضرت وكأنها تعرف ما أضمره من كلام، فبادرتني تفتتح الحديث أو تحرض مكنوناني على الظهور.

- كانت أمي تحبك جداً، ولطالما حدثتني عنك وعن طفولتك، ولطالما جعلت منك قدوةً عليّ الامتّثال والاحتذاء بها.

- رحم الله والدتك، كانت بمثابة الأم، أتذكرها قبل أنْ تتزوج، وقبل أن تلدك، وبعد أن صارت أماً، وفي كلّ إجازة أزور فيها عدرا العُمّاليّة، محطات لها في القلب مكانة لا تزول ولا تمحى وإنْ ماتت صاحبتها، القديسون يموتون ولا تموت ذكراهم.

قبل الثامنة، جمعت الكلّ في صالون المنزل الكبير، ثمّ أحضرت حبتيّ المساء، وبدأت حديثي:

- رحم الله من اجتمعنا بسببهما، منذ زمنٍ طويل لم أجلس معكم، شوقي لجلسات حبة المساء شكّل العقبة الرئيسة في

إقامتي في روسيا، وَلَكم وددت لو كنت حاضراً معكم مذ بدأت هذه الحرب الشنعاء، لكن أحدهم من مُدّرسي الماجستير، منعني بالحجة، وأخبرني أني مهندساً هناك خيرٌ مني فرداً أو جندياً هنا، بالحرف الواحد قال لي:

- الإرهابيون خربوا كلّ البنى التحتية في بلادكم، وسيقدر الجيش على إخراجهم مهما طال الزمن، وعليك أن تفكر بسؤالٍ واحد، ماذا بعد ذلك؟ إذا قام الجيش بمهمته في استرجاع الأرض، تبقى مهمتكم أنتم في استرجاع قيمتها، والاستفادة من إمكانياتها، فاصبر حتى يعمّ الأمن لتعود مهندساً مفيداً، فتكون عوناً لبلادك، ومكملاً لجيشك من خلال مؤسستك أو وزارتك.

- وهل وجدت كلامه صائباً؟

- لم يكن أحدٌ في العالم يتصور أنْ يحدث ما حدث، ولو كان غير ذلك لفرّ الناس قبل دخول الإرهابيين إلى أيّ مدينة، لقد مات من مات، لقد دفعنا ثمن حبنا، وألفتنا، واعتقادنا الطيب بطيبة كلّ القلوب، غالياً، صحيحٌ أنني كنت في روسيا، ولكن لم أكن يوماً بعيداً عما يجري هنا، وما جمعي لكم إلا لأشرح لكم

ما حدث وما صار، حتى طلبت منكم تعليق صورة حيّان مع صورة وليد في خيمة العزاء، رغم كلّ ما بدر من وليد، ورغم ما استحوذ عليكم بأنه ولدٌ عاق أو جارٌ سيِّئ، قد يطول حديثي لسهرات عديدة، إلا أنه من الضروري جداً الاستماع له، فوليد أخي مثلما هو حيّان ويهمني تبرئة صورته من أيّ تهمة، لا أقصد طبعاً إنه لم يفعل ذاك الإثم، أو غيره، وإنما قصدي أنه انتهى إلى ما أردت، أنا وأنتم، وهوايته السورية، ودينه الإسلامي السمح، أعرف ما يدور في بال كلّ منكم من أسئلة، وعلى الأخص السيد عبد السلام وابنته الكريمة، فاسمعوا ولا تقاطعوا، لتعرفوا مقصدي، ولتعرفوا ما احتجب عنكم وما ظننتم به من سوءٍ بحق وليد.

سيساعدني في شرح مقصدي هذا الحاسب المحمول وهذه الكاميرا وكلاهما موصول إلى جهاز الإسقاط هذا ليتمكن الجميع من رؤية ما أريد عرضه، وأولّ شيءٍ أريد الحديث به هو الماضي، فاسترجعوا مع كلماتي ذكريات تلك الأيام.

الجميع بلا استثناء، يذكر أنّني ووليد تفوقنا في الدراسة الثانوية، ويذكر بطبيعة الحال دراستنا للهندسة؟ أنا لهندسة

المعلوماتية وهو للمعمارية، وبعد دراستنا لأشهر قدّم كلّ منا أوراقه، طلباً لمقعدٍ ما من مقاعد المنح الدراسية الخارجية «البعثات» فكنت محظوظاً بمنحتي الدراسية لدراسة هندسة البترول في روسيا، بينما لم يُسعف وليد الحظ، ولا أدري كيف تعرّف على بعض الأشخاص الذين وعدوه بمنحةٍ شبيهةٍ بمنح الدولة! وأريد أنْ أذكركم أنكم قد ضغطتم كثيراً على العم أبي الوليد ليسمح له بالسفر ويومها قال بالحرف الواحد: (السعودية لا تُدّرس الشريعة الإسلامية وإنما الشريعة السعودية الوهابية) وقال: (سأنظر لكم دائماً على أنكم السبب) وختم حديثه آنذاك بقولٍ لا أنساه ما حييت: (مسموحٌ لك السفر على غير رضى مني فحاول أن تسافر وليد وتعُد وليد).

لقد كنت محقاً يا عماه، ولدك سافر وليد ولكنه نسي في منتصف الدرب من يكون، وعاد إليكم بقناعٍ وحشي وقلبٍ قاسٍ، أنا سأبدأ قصتي من لحظة سفره، وما كان من هذا السفر، خيره وشره.

بعد عامٍ تقريباً من حصولنا على الشهادة الثانوية، سافر كلّ واحد منا إلى بلد الدراسة، أنا إلى روسيا، حيث أرسلتني الدولة ووليد إلى السعودية، حيث اختطفته إحدى الجمعيات الدينية المنتشرة في ريف دمشق، وأقول «اختطاف» لأنها كذلك هي تسير على النهج الموضوع لها مسبقاً، أنا لا أعرف هذه الجمعية، ولا أعرف إذا ما كانت مُرخّصة أو تهريباً، المهم أنّهم استطاعوا الدخول إلى عقلية وليد ودراستها، ثمّ جذبه من نقطة ضعفه وهي«البعثة» أو«المنحة» كان جاهزاً لعمل أيّ شيء مقابل حصوله على هذه المنحة! ظناً منه أنه بذلك يعوض عقدة النقص المكونة لديه، لتجاوز المشرفين على بعثات الدولة اسمه، رغم أحقيته بذلك، أنا أُفَصّل الظروف المحيطة بدّقة متناهية، ليس لخلق أعذار لوليد، أو لوضع الحق على الدولة، أو غيرها، في كلّ بلاد العالم ينتشر الفساد وعلى مستويات، وهذا لا يعني أن يتجه المتضرر إلى جهاتٍ غير مدروسة بالقدر الكافي، فيكون كمن هرب من تحت الدلف إلى تحت المزراب.

لقد سافر قبلي بعشرة أيام، ولكنني سبقته بالاتصال من روسيا مع جميع الأهل بعشرين يوماً، أخبرني أنه أخضع إلى

دورة دينية اختبارية، لمدّة شهرٍ كامل شملت الصيام، وأداء الصلاة، والاعتكاف بمسجد الجامعة، وتلاوة القرآن وحضور الكثير من المحاضرات الثقافية، التي توضح للدّارس الظروف التي ظهر فيها الدين الإسلامي.

طبعاً تواصلنا كان عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وكان اسم حسابي، حبة المساء١، بينما كان حسابه باسم حبة المساء٢، ولقد شعرت من بداية تواصلنا بأنّ أحداً ما يقبع فوق رأسه، ويراقب ما يكتبه حرفاً حرفاً، ولكم أن تنظروا إلى شاشة العرض لتروا صور المحادثات المختارة، وأودّ أن أقرأها بصوتي بعد إسقاطها عبر جهاز الإسقاط.

- مرحباً وليد، كيف حالك؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أين كنت كلّ هذه المدّة؟ منذ حوالي خمسة أيام وأنا أحاول التواصل معك!! مغلق، مغلق.

- لقد كنت في رحلة.

- رحلة!! رائع، أين؟ على سواحل البحر الأحمر حيث الشعب المرجانية؟ رائعة جداً.

- لا يذهب ظنك إلى بعيد، لقد زرنا بعض المواقع الأثرية، القديم منها، والمعاصر تقريباً.

- لم أفهم؟! زُرتم مَنْ مثلاً؟

- زرنا آثار خيبر، وآثار بني قريظة، ثمّ زرنا قصر مؤسس المملكة العربية السعودية.

- آ... عفواً ألم يتح لكم الوقت في أول رحلة لزيارة قبر رسول الله (ص) أو زيارة بيوت بني هاشم؟! أم كانت الزيارة يهودية خالصة؟

انقطعت المراسلة في هذه اللحظة، راقبوا التاريخ والتوقيت ٢٥ /٩ /٢٠٠٤الساعة التاسعة وخمس دقائق مساءً سأنتقل الآن إلى المحادثة التالية وهي بتاريخ ٢٥ /١٠ /٢٠٠٤.

- مرحبا وليد الحمد لله على السلامة، خير يا طير، أكنت في رحلة دينية؟ أم فضائية هذه المرة؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لا هذه ولا تلك، لقد بدأ العام الدراسي وأنت تعرف بداية كلّ مرحلة وصعوباتها، ولم تستقر إقامتي إلا منذ يومين، وإن شاء الله سأكون معك بعد التاسعة من مساء كلّ يوم.

- اعذرني لقد قلقت عليك كثيراً.

- أعرف وأقدّر مشاعرك نحوي، كيف روسيا بلاد البرد الداخلي والخارجي؟

- الخارجي فهمناها، أمّا الداخلي فلم أفهم؟

- القلوب التي لا تعرف الله قلوبٌ باردة.

- ومن قال لك إنّهم لا يعرفون الله؟ أخبر من أعطاك هذه المعلومة أنّه على خطأ، وأنّه إنْ استنتج ذلك من وجوه الروسيات السافرات، أو من طريقة تعاملهن مع الرجال في أماكن العمل أو الشارع، فهو مخطئ، فليس من الكفر أنْ يظهرنْ وجوههن أو شعورهن، إنْ لم يكن لديهن أيّ نوايا سيئة باصطياد الخطيئة، على عكس بعض الأقوام التي تُجبر فيها النساء على ارتكاب الخطيئة بعيونهن الظاهرة فقط، وإن كان صديقك يقصد الرجال وتلهيتهم عن العبادة والصلوات، وما شابه ذلك، فهم أكثر إيماناً من بعض هؤلاء الرجال ذوي الوشوم البنية على جباههم، الرجال الروس يعلمون بعقلهم، بعلمهم، بإدراكهم، أنْ أحداً ما يسيطر بقدرةٍ خارقة على

مجريات الكون، هم يبحثون عن الله بالعلم، أليس العلم نور؟ أليس الله نور السموات والأرض؟ أم أنّ الآية التي يقول فيها الله جلّ وعلا من سورة النور﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح**﴾. (النور٣٥) لم تمر معك في دورتك الدينية؟ ابقَ يقظاً يا وليد، واحرس عقلك قبل أن يُسلب، وأنت لا تشعر، وإيّاك أن تلقِي التهم على الشعوب جُزافاً، وانتبه إلى أنّ هذا الشعب الذي تقذفه يعبد الله كما أمر وإن لم يتلُ القرآن الكريم، لقد نهجوا منهج الآية الكريمة ﴿**يا معشر الجن والإنس إنْ استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ولا تنفذون إلا بسلطان**﴾. (الرحمن٣٣) أمّا غيرهم ممن يدعي بأنه يعبد الله حق عبادته، فتعال وشاهدهم هنا في روسيا بسياراتهم الفارهة، وحياتهم الليلية ولغتهم القرفة، خلطاً ما بين العربية والإنكليزية والروسية، وفهمك كفاية.

- ما الذي حدث لك حتى فلت لسانك بهذه الطريقة؟ أنا أمزح معك يا علي.

- لو كانت هذه المزحة من عندك لبلعتها! ولكنها ليست إلا عبارة سمعتها، وجلُّ ما أخشاه أنْ يُدس لك السم بالدسم فحاذر.

انقطعت المراسلة أيضاً ولكنها عادت في اليوم التالي سأعرض عليكم هذه الرسالة التي أتتني من مشتركٍ غريب! وباسم أغرب«مهاجر»! ونرتاح لأخذ فنجان قهوة بينما يتناول والدي وأبو الوليد حبة المساء.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا وليد، أرسل لك من حسابي السرّي هذه الرسالة، لأخبرك أنني أشعر بأن أحداً ما يراقبني على حساب حبة المساء٢، كن حذراً بالكلام معي. أكثر من مرّة جربت، وبالمقارنة بين ما أكتبه لك وما أسمعه في اليوم التالي تيقنت من ذلك، استودعك الله.

- ما رأيكم؟ لقد كان حدسي في مكانه، فكرت كثيراً في هذا الكلام، ووصلت إلى نتيجةٍ غريبةٍ بعض الشيء، هؤلاء اكتشفوا من خلال تعاملهم مع وليد أنهم لن يستطيعوا السيطرة عليه إلا بحالة واحدة، وهو إخراجنا من عقله و ربما تحويلنا إلى طرفٍ مضادٍ بالنسبة له، طرفٌ لا يتمنى له الخير، وقد يتطور الموضوع إلى طرفٍ سيمنعه من دخول الجنة، أنتم تعرفون وليد، الكلمة تسحره، وأبسط المواقف تخدعه، وبوجوده بين أيديهم فالتحكم بعجينته سهلٌ جداً، ولأنني عقدة الوصل ما بينه

وبين أهله ومجتمعه فالحرّي إظهاري كممثلٍ للطرف الآخر، وبتلقينه ومراقبة حديثه معي سيجذبون قلبه، ثمّ عقله، ثمّ يعلم الله مآلهم!

- كلامك صحيح يا ولدي، وليد شابٌ بسيط، وهذا ما أخافني عليه، وهذا ما حدث، فات أوان الندم، فات.

- ألم يسألني أحدُ منكم عمّا تصرّفته؟ وكيف قبلت هذا التحدي؟ وأيّ قرارٍ اتخذته لاسترجاع وليد؟

- وهل نفعت كلّ تصرفاتك يا علي حتى نسألك عنها؟ لقد رأينا إلى أين آلت حالة وليد، (الضَرَبْ ضَرَبْ والهَرَبْ هَرَبْ) لقد وقع الفأس بالرأس، وما من فائدة لكلّ هذا الحديث.

- على العكس يا أبي، لو كان كما تتصور لما سمحت لصورته أنْ تُعلق في خيمة العزاء، وعلى مرأى من كلّ المعزين الذين تساءلوا همساً وتشويشاً، عاتبين منزعجين منها، بل وأكثر من ذلك - وأعتذر سلفاً من عمي أبي الوليد وزوجه - ما كنت قبلت بإقامتهم في بيتنا سواء أكانت ابنتهم كنتنا أم لم تكن، ليس حماقة مني وإنما حفاظاً على مشاعرهم من نظرات أعيننا التي ستنتهي من البكاء لتتفرغ إلى اللوم والعتب وأكثر من ذلك.

- أرجوك يا علي أخبرنا كلّ شيء، أمات ولدي شهيداً؟ أم مات على دين الكفر والقتل؟ النار التي تأكل قلبي ليس لها نظيرٌ بين قلوب الثكالى، أخذلتني تربيتي إلى درجةٍ وصل بها ولدي لمرحلة الإجرام والتكفير؟ أكان له يد بالذي حصل في مدينة عدرا العُمّاليّة؟ أكان مشاركاً في قتل أم الريم؟ ما علاقته بالذي حدث لأخيك؟ أريد أن أترحّم عليه فلا يُطاوعني عقلي! وأريد أن ألعنه و أتبرَّأ منه فلا يطاوعني قلبي! ولدي وليد من يكون القاتل؟ وليد؟ أم الشهيد وليد؟

- كفكفوا دموعكم يا جماعة، وامسحوا وجوهكم بالرحمن، واستهدوا بالله، اهدؤوا قليلاً وليشرب المريضان حبتهما، وليحتسي الجميع قهوته، ما زال في القصة فصول كثيرة، وما نيتي بسردها إلا ليصل الجميع إلى مبتغاه عن رويةٍ وقناعةٍ ويقين.

استعاد الجميع توازنه، إلا أمي التي ظهرت وكأنها في دنيا غير دنيانا، لا تسمع ما نقول حتى تفقهه، ولا يعنيها أصلاً من حديثي واستنتاجاته - بعد فقدها لحيّان - أيّ شيء، لم تجلس معنا من باب حسن الضيافة بل من باب سعيها الدائم

لمشاركة أيّ باكٍ بالبكاء والأنين، جلست وعيناها المحمرتان تحدّقان في نقطةٍ واحدة من الأرض وجذعها العلوي يهتز بأكمله اهتزاز التّحسر والألم، يصدر من فمها كلام يشبه كلام المواويل الحزينة بلا أيّ توقيت معين! ولا فرق لديها أكان هناك من حديثٍ دائرٍ أَمْ صمتٍ جائر! والمشكلة بي على الأقل، أنني لم أستطع تفسير كلامها أو فهمه رغم تدقيق حاستي السمعية! عبثاً حاولت ولم أفلح، وجدت أنه من الأفضل لي أن أبدأ السرد قبل أنْ يندمج الجميع بالبكاء، فجذبت انتباههم بضرب الفنجان بصحيفته وحمديَ الله على نعمه، موجهاً وجهي باتجاه شاشة الكمبيوتر المحمول.

- يا كريم، بعد أن وصلتني رسالته، اتخذت قراراً بأن أواجه وأتحدى، هذه معركة! اعتبرت فيها وليد شاباً مخطوفاً مع وقف التنفيذ! وعلّي استرجاعه قبل تمام مؤامرة خطفه، ولكن كيف؟ فكرت إلى أنْ وصلت إلى حل، إنه السلاح ذاته الذي سيستخدم في هذه العملية ولكن بطريقة أخرى وأسلوبٍ آخر.

- لم أفهم ماهية هذا السلاح الذي يستخدم مرتين وبجبهتين متضادتين؟!

- معك حق يا آنسة ريم، عليّ أنْ أذكر اسم هذا السلاح وماهيته، ولكن قبل ذلك أريد أن أسألك وأسأل الحاضرين، كيف استطاعوا إرسال كلّ هؤلاء الإرهابيين إلى هنا؟ يعني ما الذي فعلوه لهم حتى تمكنوا من إرسالهم إلى الموت أو الإجرام؟

- غسلوا أدمغتهم.

- ممتاز وبماذا غسلوا أدمغتهم؟

- بالكلام والدين.

- أحسنتِ، ولكن أضيفي، بالكلام الكاذب، والدين المُغاير لأصول الدين الإسلامي وتعاليمه، وهذا ما يُسمى في علم الهندسة البترولية بالاندماج القسري الكاذب، أيّ الاندماج بين مادتين لا تقبلان الدمج إلا بوساطة مادة ثالثة، وغالباً ما ينتج عن هذا الاندماج أدخنة سامة، ونحن أمام حالةٍ دُمج فيها القتل والإجرام مع الفطرة الخيّرة للإنسان، بوساطة المكر، والخداع، والتحوير الديني الرهيب، وعلى هذا الأساس كان اختياري للسلاح ذاته ولكن باستخداماته الصحيحة والسليمة.

- أتقصد أنك حاربتهم بالدين؟

- نعم، بالدين، وما حفظته من الدين الإسلامي والمسيحي، مستنداً إلى شواهد جمة حَفلَ بها كلٌّ من القرآن الكريم والإنجيل المقدس، لقد تعبت كثيراً مستغلاً أوقات فراغي، وأوقات راحتي، للمكوث في مكتبة الجامعة الكبيرة، ولو لا ما تزودت به من معارف دينية عن سماحة الدينين، لما استطعت أبداً المواجهة، ولأعلنت انسحابي من بداية الطريق، تاركاً وليد في مهبِّ ريحٍ صرصر من الردى والمهالك.

- وفقك الله يا ولدي، وكأني بالطمأنينة تسري إلى جسدي المتعب، وقلبي المتهالك، حزناً، وألماً، وقهراً، أبشري يا زوجي يا أمّ وليد، فولدنا علي ولدٌ مبارك ولن يكون منه إلا الخير، لنا ولأولادنا، أكمل فكلنا آذان صاغية؟

- فيما تلا من الأيام، كانت مناورات وليد معي بلا ميزة محددة، مرةً يحادثني عن الطقس وأخرى عن الأهل، إلى أنْ صعقته ردة فعلك باتجاه المال المرسل إليك منه، كان رفضك لاستلام المال أول صدمةٍ يتلقاها!

- أذكر ذلك لقد اتصل بي مستفسراً عن تأخري المقصود باستلام المال، ظن أنه يفاجئني بكبر المبلغ، قلت له: أنا لم أرسلك لأجني مالاً من وراء سفرك، يكفيني أن تَعودَ كما كنت، رجاني كثيراً مذكراً إيّاي بمنزلنا القروي غير المكتمل، بحاجتي لسيارة، باقتراب موعد خطوبة هديل لحيّان، وما تحتاجه هذه الخطوة من تحضير، وكلّ هذا لم ينفع، أنا لم أستلم قرشاً واحداً منه، فاضطر لتحويل المال إلى اسم أمه والله أعلم ما كانت تفعل به! لأنني لم أسمح بذكر هذا الموضوع أمامي البتة.

- لم أفعل شيئاً وضعته في البنك باسمي قائلةً في نفسي: إلى أنْ يَعُود وترضى عنه سيكون المال جاهزاً لفعل أيّ شيء، شراء بيت، تزويج، شراء سيارة، لم أصرف منه قرشاً واحداً، لا في البيت ولا خارجه.

- لقد افتتح معي المحادثة مرةً بهذا السؤال، انظروا إلى شاشة الإسقاط ولاحظوا بداية حديثه دون السلام.

- علي، لو سألتك كم تتقاضى كراتبٍ شهري أتخبرني؟

- طبعاً، مع أنّ سؤالك مضحكٌ للغاية، ألف دولار.

- هل توفر منه شيئاً؟ هل ترسل إلى أهلك مما توفره؟

- غريبةٌ أسئلتك! ما بك هذا المساء؟ أأنت بخير؟

- أجبني، وسأخبرك بكلّ شيء.

- في الحقيقة أوفر الكثير، فأنا لا أضطر هنا لدفع أجرة البيت، ومعظم حاجاتي الشخصية مقدمة من الجامعة بالمجان، نحن كسوريين نُعامل معاملة طيبة في روسيا، أمّا عن سؤالك الثاني فلقد أرسلت إلى أهلي مرة واحدة ألفي دولار استلمها والدي وربما صرفها في سقف الطابق الثاني لبيتنا القروي، فما خطبك؟

- ما خطبي!! لقد أرسلت إلى السيد أبي الوليد خمسة عشر ألف دولار ليفرج ضيق العائلة فما قبل استلامها! حتى إنني رجوته قليلاً وكثيراً، ولولا أنّ أمي استلمت الأموال بعد تغير اسم المُرسل إليه لرُدتْ أموالي إليّ، ورغم إصراري على معرفة سبب ما لرفضه إلا أنني فشلت! وما زال هذا الرفض يغلي في قلبي حتى إنه سلب النوم من أجفاني، وجعل في نفسي من

الحيرة والاضطراب ما لا أقدر على وصفه لك، فهل هناك شيءٌ ما، لا أعرفه؟ أرجوك إن كنت تعرف فأخبرني؟

- هون عليك أنت تعرف أباك لا تعنيه أموال الدنيا بشيء، ولو كان عكس ذلك لكان من ذوي المال منذ زمنٍ طويل، هل نسيت أنه استلم يوماً القسم المالي في معمل الإسمنت؟ ومن ثمّ مديراً لمكتب والدي حيث الصفقات الكبيرة؟! لقد أراد أن يوصل لك رسالة مفادها (أنت ولدي وأريدك أن تعود إليّ وليذهب مال قيصر لقيصر).

- مع أنني لم أقتنع، إلا أنني سأتظاهر بالغباء والاقتناع، حجةٌ ضعيفة ووراء الأكمة ما وراءها!

في الحقيقة بدر إلى ذهني بعض الأسئلة، التي خطرت على بالك آنذاك ولكنني لم أطلعه عليها خشية أن يقرأها من وضع نفسه موضع المراقب على حسابه، ومحادثاته، فيعرف من يواجه، أنا اعتبرتهم أعداءً لي ومن الغباء أن تُعرّف أعداءك كيفية تفكيرك، فقلت في نفسي (كلّ شيءٍ في وقته حلو).

- وما تظنها تلك الأسئلة؟ كلّ ما في الموضوع أنني لم أشأ أن أشعر في يومٍ من الأيام أنني أبيع ولدي.

- نعم أوافقك، وأضيف إلى ذلك أنك تساءلت إن كانت المنحة المقدمة لوليد من جمعية؟ تحاول أن تحدد هي ما سيدرسه الطالب، بحجة تقليل المصاريف المستقبلية، بالاعتماد على الخبرات المتوفرة، فلمَ يكون راتبها بهذه النسبة المرتفعة؟ مقارنة مع أيّ طالب ترسله الدولة إلى الخارج؟ وإن كانت دولة أبعد من السعودية وتكاليف العيش فيها أصعب كألمانيا أو روسيا التي يدرس فيها جارنا علي؟

- أنت فكرت هكذا، فحاولت أن يستدرك وليد هذه الحقيقة دون أن تتسبب له بأيّ إشكالٍ في إقامته، أو دراسته، أليس تحليلي صحيح؟

- ربما كان هذا التحليل، وربما لأنني كنت أعاقب نفسي على إعطائه الموافقة، وربما كنت أستبصر قادم الأيام وإلى ما نحن فيه أرشدتني بصيرتي، فنازعتني نفسي على قبول المال وقبول الحال.

- بعد أن مضى على غربتنا سنة كاملة، نجحت فيها بامتحان اللغة الروسية بامتياز، عدت إلى عدرا العُمّاليّة، لأتفاجأ بنجاح حيّان في الشهادة الثانوية وبتقديم أوراقه إلى الكلية الحربية في

حمص! لم يكن لي أيّ دور في تشجيعه أو ثنيه عما يرغب، بل على العكس طلب مني أن أهدئ من روع أمي! وفعلت مبرراً بما لم أقتنع به أنا أصلاً!

- الرجل يجب أن يشق طريقه بنفسه، وقد وجد أن أقصر الطرق لبناء حياةٍ سعيدة مع هديل هو الالتحاق بالكلية العسكرية، ثلاث سنوات ويعود ضابطاً، لتفرحي به وبزواجه، ألا تريدين أنْ تري أحفادك باكراً، لو فعل كما ترغبين فلن ترين أحفادك إلا بمضي عشر سنوات!؟ ولا أظن «هديل» تنتظر طوال هذه المدة، وإن انتظرت فلن ينتظر أهلها، إنه ذاهب وذاهب، فليكن ذهابه على رغبةٍ منك ومن أبي، أفضل من أنْ يكون كما كان من والد وليد، بسفره إلى السعودية.

- أنا على استعداد أن أزوجه غداً، شرط ألّا يبتعد عني، أقنعه أرجوك، ليس لي في هذه الدنيا غيركما، أنت سافرت غصباً عني، أفلا يبقى أخوك بقربي، أرجوك أقنعه.

- وماذا عن خدمته العسكرية؟ ألن تسمحي له بأدائها؟ يا أمي، يا حبيبتي، هذه سُنَّةُ الكون، أكان يرغب والداك برحيلك مع أبي إلى هنا؟ هذه حياته وليخطّها كما يشاء، كوني له

عوناً، وسنداً ولا تكوني عليه هماً ونكداً، ادعي له بالتوفيق، والبركة، وانتظري قدومه ضابطاً، وعريساً، وربما أباً.

- وماذا عنك إلى متى سأنتظر قدومك؟ أنت لم تنتهِ إلا من سنة اللغة، وبقي أمامك خمس سنوات للهندسة ويعلم الله كم سنة لتكمل المخطط الدراسي الذي في رأسك!؟ أنا مستغربة كيف يرضى أولادي تعذيبي قُبالة كلّ هذا الحب الذي منحته إيّاهم؟ فليفعل ما يشاء، قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر.

قبل انتهاء إجازتي، التحق حيّان بالكلية الحربية، والتحقت هديل بمعهد المراقبين الفنيين، أعتقد أنهما اتفقا على كلّ شيء قبل افتراقهما، معها حق أمي، الفراق صعب، ودّعني أخي، فشعرت بمرارةٍ قهريةٍ كادت أنْ تقتلني، فما بالكم الأم التي يودّعها ولداها اللذان لا حيلة لها في هذه الدنيا غيرهما؟ بدا لي أنّ المُودَّع لا يشعر بالألم ذاته الذي ينتاب المودِّع، وإلا ما تفسير هذا الإحساس الذي لم أشعر به في سفري إلى روسيا؟! كان الله في عون الأمهات اللواتي يربين، للحظة كهذه تسلبهم كلّ ما اختزنته أرواحهن من الحب، والعاطفة، والحنان.

عندما أخبرت وليد بسفر حيّان ردّ علي وبشكلٍ سريع ومباشر: بـ (الحمد لله) أزعجني هذا الرد ولذلك سأعرض لكم المحادثة كاملةً لا لشيءٍ ولكن لتتحققوا معي أنّ هذا الرد كان علامةً فاصلة، لنقطة التحول التي مرّ بها وليد، وإن حاول في منتصف المحادثة، ترقيع ما افتضح من أمر تغيّره الإيديولوجي، أو الفكري.

- مرحباً وليد، كيف مساؤك هذا اليوم؟ إن شاء الله ليس حزيناً كمسائنا؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خيرٌ إن شاء الله؟

- لقد سافر اليوم حيّان إلى حمص ليلتحق بالكلية الحربية.

- الحمد لله.

- في كلامك شيءٌ من الفرح والسعادة! كلنا بكينا حتى أهلك وهديل وأنت فرِحٌ وسعيد!

- لم أقصد حرفياً ما ظننت، ولكنني أَعياني التفكير لإيجاد طريقة ما، نقدرُ أنْ نُبعد فيها هديل عن حيّان.

- نقدرُ!! نُبعد!! من قال لك إننا نريد أن نبعدهما عن بعض؟ أو إننا نفكر في ذلك؟ هل أنت وليد؟ إذا كنت كذلك أفلا تعرف من هديل ومن حيّان؟ وما يربطهما من حب؟

- لأني أعرف، أفكر و أحاول، أن أبعدها عنه، هذه أختي ولن تتأسى عليها مثلي، لو قرر أخوك خطبة غيرها، هذا احتمال وعليّ أخذه بالحسبان، ولذلك أحاول إبعادهما عن بعض، فإن حصل وخطبها فأهلاً وسهلاً، وإن قرر عكس ذلك فلا ضرر ولا ضرار.

- وليد، إن لم تعرف عمّن تتحدث أو مع من، فأنا مضطرٌ لإنهاء المحادثة معك، إن لم يعد حيّان يعني لك شيئاً! فهديل أختي مثلما هو حيّان أخي وزيادة، وكلامك هذا إهانةٌ كبيرة لي أنا قبلهما، ولأهلي قبل أهلك، فعُدْ إلى رشدك، وتذكر من نكون ومن يكون أهلك بالنسبة لنا، يا... شيخ وليد.

- انتظر انتظر، لا تغلق، هذا مجرد رأي وإن كنت حريصاً على مشاعر هديل فالأجدر بك أن تُقدّر كلامي! وأنْ تأخذه على غير محمل الجد الذي أخذت.

- أنا برأيي أنْ تُوقف دراستك وتعود إلى منزلك، عسى أن تتحكم بهديل، وبأهلك، فتسمح لها بمنح مشاعرها أو كبتها، وتسمح لأهلك بمعاملتنا أو قطعها... وداعاً.

طبعاً ألحق محادثتنا تلك برسائل اعتذار عدّة ولكنني لم أردّ على إيّ منها إلى أنْ عدت إلى روسيا فأخبرته بوصولي، ورويداً رويداً عادت المياه إلى مجاريها، لأنني تناسيت إهانته، محتفظاً لنفسي بحق التذكير والتوبيخ لوليد يوماً ما.

وليد أو الذي وراء وليد ظنّ نفسه أذكى مني! وأخذ يحاورني بطريقة اعتقد أنها قريبةٍ من عقلي! فتارةً يحدثني عن الإعجازات العلمية الموجودة في القرآن والمكتشفة حديثاً، كطبقات الأرض، ومحتوياتها، أو فوائد الخيرات الموجودة على سطح الأرض، كالنخيل، والأعناب، والرمان، والبصل، والثوم، وتارةً يحدثني عن قصص الأنبياء، و عن أعمالهم النبيلة في سبيل هداية أممهم، وإن كان في ذلك مواجهة الحكام، وأرباب البلاد، إلى أن ينتقل فيحدثني عما يحدث في العالم من مصائب وينسب كل ذلك إلى كثرة المعصية والكفران!

كان ذلك في عام ٢٠٠٦ وكنت أتماشى مع سيره وأتظاهر بأن ما يرويه لي جذابٌ جداً، وأنني أسمع أغلبه كأول مرّة، أردت أن أعرف ما وراء كلماته، ومن هو هذا الشخص الذي يُدير حركة لسانه واتجاهه، إلى أنْ عرفت ذلك مع بداية حرب تموز، حرب المقاومة الإسلامية في لبنان ضد العدو الإسرائيلي، ولكم أن تشاهدوا معي هذه المحادثة وتدققوا.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام أهلاً وسهلاً.

- كيف كان صباحك اليوم؟ إن شاء الله مشمس وجميل؟

- مشمس وجميل، لكنني لا أشعر بحسنه كما هي العادة! لقد خيّم الحزن على قلبي، ونفسي ولم أغادر شاشة التلفاز منذ أن استيقظت، قلبي في جنوب لبنان وعلى أهله.

- لقد كبرت رؤوسهم حتى لم تستطع أكتافهم حملها، فجرّوا الويلات على أنفسهم، رموا بأنفسهم إلى التهلكة، وعلى من يضع أصبعه في حجر العقرب أن يتوقع اللدغ.

- وليد!! ما بك؟ هؤلاء أهلنا! ومن يعتدي عليهم طيران الكيان الإسرائيلي، أتتحدث عن حرب الجنوب؟ أم عن حربٍ من حروب التاريخ التي أشبعتني عنها قصصاً؟

- لا تكن رومانسياً إلى هذه الدرجة، أعرف أنّهم أهلنا، وأنّ من يعتدي عليهم إسرائيل، أنا أقول ما أراه صحيحاً، إن لم يكن باستطاعتك لجم الدب فلمَ تأتي به إلى كرمك؟

- لأن الموضوعَ موضوعُ كرامة، لا دُبَّ ولا كَرْم، تخيّل إنك شاهدت جماعةً ما تحتل بيت أهلك وسنحت لك الفرصة أن تخطف أحدهم، فهل تسلمه قبل أن يخرجوا من بيتكم؟ حتى لو صُفعت بدل الكف ألف كف؟

- لا أسلمه، ولكن إذا كانت التكلفة أن يُصفع كلّ أقاربي، وجيراني، وربما تتطور مرحلة الكف إلى القتل النهائي، فهذه حرب مغامرة أكثر منها حرب كرامة!

- آ... الآن عرفت! أتعتقد أنك تدرس الشريعة الإسلامية بمنحةٍ من جمعية خيرية تعمل لوجه الله سبحانه وتعالى؟ أم لوجه آل سعود الذين يريدون أن يكسبوا آراء الشارع العربي والإسلامي إلى كلّ ما يجدوه صحيحاً؟ سواء قالوا أم فعلوا؟

- أنت تُخرّف، كلامك هذا تهمةٌ للقوم بأنهم سعداء بما يجري على أرض الجنوب، وهذه تهمة مردودة عليك، وإن كنت تحب أن أذكرك بما قلته لي عندما تكلمت عن الشعب الروسي، لا ترمِ الناس بالتهم جزافاً هذا إثم كبير، هذا نفاق، بئس القوم الذين يقولون ما لا يفعلون.

- أنا أخرّف يا وليد؟ وهذه تهمةٌ مردودةٌ عليّ؟ إذا كنت أنت سعيد وتبرر ما يحصل على أرض الجنوب! فكيف هي حال أسيادك؟ أنا أنافق وأقول ما لا أفعل؟ حسناً سأرد بجوابٍ واحد، إنْ كنتَ سعيداً حقاً بما يحدث من مجازر فهذه خيانة لله، وللوطن، وللأهل، وللنفس! وإنْ كنت سعيداً لأن أسيادك - الذين يدفعون لك مُرتباً شهرياً يعادل خمسة أضعاف مرتب أيّ طالب يدرس في الخارج - طلبوا منك أنْ تُعبّر عن سعادتك الإجبارية بهذا الشكل وهذا العنفوان، فهذا هو النفاق! أنا لا أبيع مشاعري وأحاسيسي بالمال، هذا وطني، وهؤلاء أهلي، وكلّ ملايين العالم لا تساوي عندي دمعة طفلٍ، أو قطرة دم أهرقتها الحرب، من مدنيٍ أو عسكري، فحاسب نفسك وصنّف فعلك، واختر موقعك، ما بين الخيانة والنفاق، ولا عليكم السلام ولا رحمة الله وبركاته.

أثنى جميع الحضور بلا استثناء على ردي، إيماءً بعيونهم، أو هزّاً برؤوسهم، أو ببعض الكلمات كما فعل والده.

- أحسنت يا علي لقد وضعته في خانة الـ«يك» من يقبل أن يبيع وطنه مقابل أيّ شيء حتى لو كان رأسه تحت المقصلة اسمه خائن، ولو لم يكن وليد ولدي لقلت: إنه قليل الأصل.

- حاشا أن أقصد مما أخبركم به إيصالكم إلى هذا القول، ولو لم أعرفه وأعرف أصله، لاعتبرته ورقةً صفراء، هبت عليها رياح الخريف، وأخذتها إلى غير رجعة.

- وأيّ رجعة؟ تلك التي عادت بها ورقة صفراء سكيناً ذبحت أناساً طالما سقت شجرتها حتى نمت؟ وأخذت لونها الأخضر؟ اعذرني يا عم ما فعله وليد لا يقبل المسامحة، لقد لطّخ يديه بالدم، وحقت عليه كلمة السيد المسيح (إنْ كان أحدُ يقتل بالسيف فينبغي أنْ يُقتل بالسيف، هنا صبرُ القدّيسين وإيمانهم). وقال في المناسبة نفسها (كلّ من يبغض أخاه فهو قاتلُ نفسٍ وأنتم تعلمون أنّ كلّ قاتل نفسٍ ليس له حياة أبدية ثابتة فيه).

- انتبهي إلى كلامك يا ريم، ما كانت أمك امرأة حقدٍ وضغينة، فلا تُلبسي قلبك ثوباً ليس له، ولا تتعاملي مع أحدٍ على أساس موقفٍ واحد، قد تلومين نفسك ساعة لا ينفع اللوم، وليد توفي ولا يجوز منا إلا الترّحم على روحه، وإنْ لم يكن من بد فقولي: عليه ما يستحق من الله.

- عليه ما يستحق من الله، أنا لست كما تصف، أنا مثل أمي والفرق بيننا أنَّ أمها لم تُقتل، أمّا أمي فقد قُتلت ذبحاً يا علي! وبيد من؟ بيد وليد أو أحدٍ ما من جماعته! إنْ لم أكن حاقدة عليه فهذا لا يعني أنْ أغفر له ذنبه وأسامحه، المغفرة تقويضٌ للعدالة، في النهاية نحن بشر، والمغفرة صفة من صفات رحمة الله. فلا تجبرني على تغيير قناعتي أو إبداء شعورٍ كاذب غير الذي أشعر به.

- حرّفتِ مسار الحديث بشدّة، كلامي لا يعني أن نتغاضى عن فعل المجرم، ولكن الحقد انتقام الضعفاء، فأما أنْ يُلقى القبض على المجرم ويُحاسب، أو يُترك لعدالة الله، التي لا مفرّ منها، وبالمناسبة هذا الشاب الذي تتكلمين عنه، أحبّكَ صغيرة

إلى درجةٍ اعتقد الناس بها أنك أخته! وأحبّكِ صبيةً إلى درجةٍ لا أستطيع أن أصفها لك! ولا أستطيع أن أُسمي الأفعال التي كان مقرراً أن يفعلها من أجلك!

- أرجعنا يا ولدي، إلى ما كان منك ومن وليد، نريد أنْ نعرف أكثر عن الآلية التي حدثت معه، حتى انقلب هكذا من عصفورٍ طيب إلى وحشٍ كاسر! فكرتُ كثيراً واضعاً نفسي مكانه، واستنتجت أنهم ما كانوا ليقدروا على تغييري لو دفعوا مال الدنيا فكيف حصل وغيروه؟ بأيّ شيءٍ أغروه؟ أيُعقل أنْ يكون شابٌ مثله يتحلى بمثل هذا الذكاء وهذا الجسد ضعيفاً إلى هذه الدرجة؟

- يا أستاذ عبد السلام أنت تعرفنا صغاراً، ولا بد أنك تعرف عنا الكثير، وليد من النوع الذي تغلب فيه الطيبة الذكاء، يسوقه قلبه لا عقله، يفعل ثمّ يُفكر، يندم دائماً ولكن بعد فوات الأوان، أتذكر كم مرةٍ جاؤوا به إليك وقد أحدث مشكلةٍ مع الطلاب لأنهم لم يسمحوا لحيّان باللعب معهم أو لأنهم تسببوا له بالأذية كما هي عادة الأطفال الذين يلعبون كرة القدم، كان هكذا في كلّ شيء، ثمّ لا تنتقص من ذكاء الجماعة الذين وقع في

أيديهم، ولولا أنهم درسوا طبعه وطبيعته منذ الشهر الأول في الدورة الاختبارية لما صرفوا عليه كلّ هذا الصرف. فكن على ثقةٍ يا أستاذي الكريم إنك لو كنت أنت مكانه بمسيحيتك المباركة، لأقنعوك أنكَ إمام العصر والزمان وما ينقصك لتطبيق الحكم الإلهي إلا الاسترشاد برجال الدين الوهابيين، وحكامهم من آل سعود، وبكلّ تواضع طبعاً، هذه سنوات يا أستاذ وتساقط قطرات الماء لمدة طويلة، قطرة قطرة على الحجر الصوان، قادرٌ عل تفتيتها، فما بالك فعلوا بأعدادهم الكبيرة، وأساليبهم الشيطانية الكثيرة، بعقل فتى غض لم يتجاور الثامنة عشرة من عمره.

نختتم حديثنا لهذا المساء، لنبدأ من حيث انتهينا غداً في اجتماع الثامنة، اجتماع حبة المساء، وفقها الله هذه الحبة، من أين كان لنا أنْ نجتمع لولاها؟

بعد أن تفرق الجميع كلٌّ إلى غرفته، أجريت بعض الحسابات النفسية، أتراه كلامي قد بدأ يأخذ موقعه في النفوس؟ ألم يُثِرْ كلامي فضول أحدهم لمعرفة تتمة الحكاية؟ ألم تسأل ريم والدها عن تصرفات وليد تجاهها؟ وما قصدته من جملتي

(أحبّكِ صبيةً، والأفعال التي كان مقرراً فعلها من أجلك)؟ ألم يُشعل كلامي الشوق عند والديّ وليد لمعرفة المصير الذي آل إليه ابنهم حتى أُعلق صورته في الخيمة وأتقبّل العزاء بوفاته كما تقبّلته باستشهاد أخي؟ ألم ترتح هديل لكلامي كونها تحمل طفلاً خاله ليس مجرماً؟ ولم يكن له يد في مقتل أبيه؟ ألم تبدأ نار أبي بالخمود بعد ظهور الخيط الأول لبراءة ابن صديقه من دم ابنه؟ ما حال أمي؟ هل كانت معنا؟ هل عناها حديثي بشيء؟ هل بدأت قلوبهم بالتشوق إلى معرفة ما أعرفه؟ هل قال أحدهم في نفسه إنَّ اجتماعنا كثر غلبة لا يُقدم ولا يؤخر؟

الصباح رباح وغداً أستطيع أن أستشف من عيونهم ما جال في نفس كلِّ واحدٍ فيهم وعلى انفراد.

عندما استيقظت باكراً كانت رائحة البن تكتسح الشرفة، ألقيت تحية الصباح الملحقة بالتثاؤب:

- أسعد الله صباحك يا ولدي، كلّ من يدرس في روسيا يعتاد الاستيقاظ المبكر، ورغم البرد الموجود في جوها إلا أن منظر شمسها المشرقة، وانعكاسات أشعتها على كلّ شيءٍ أبيض ثلجي، أو مائي مُجمد، منظرٌ لا يُقاوم.

- ألم تستطع السنون أنْ تُنسيكَ هذه العادة؟

- وهل هي عادة سيئة؟ حتى الأيام التي كنت أماطل فيها ولا أخرج من فراشي إلا مُتثاقلاً كانت مجرد تمثيلية أحاول فيها خداع نفسي، بأنني نمت صباحاً، وشبعت من النوم، وأنا في الحقيقة أستيقظ في الموعد نفسه، ولكن لا أكترث كثيراً بالشرفة المطلة على الساحة والعمران، ولا بفنجان القهوة، التي سأضطر إلى شربه وحدي طالما أنّ أمك مشغولة دوماً، بإيقاظكم وتجهيزكم للمدرسة.

- أم م م... لذيذة هذه القهوة، ليس من عادتي شرب القهوة المرة صباحاً.

- أولاً، هذا الصنف من القهوة يُنشّط الجسم بأكمله، بشكلٍ أسرع من القهوة العادية، وثانياً هي بقية من القهوة التي استخدمت في عزاء أخيك وصديقك وليد.

- أبي، هل ينتابك أدنى شك بتصرفي الغريب؟ ومطالبتي بتعليق صورة وليد وتقبّل العزاء فيه على أنها عاطفة زائدة؟ أو مواساةٍ كبيرة لأهله لتقر أعينهم؟

- أبداً يا ولدي، كلّ ما في الموضوع أنّ نفسي تلجُّ في معرفة السبب، أريد تصوراً منطقياً حول تحوّل وليد بنظرك من مجرم إلى شهيد أو ما شابه ذلك؟ بحيث يُرضيك أن تُعلق صورته على مرأى من عينيّ وعيون الحاضرين! ليس بالأمر السهل قبول تصرفك، ولو لم أكن على ثقة بأنك تعرف أشياء لا نعرفها عنه ما كنت قبلتْ، عهدي بك لم يتغير من جهة الوعي والتصرّف المناسب، بل والأنسب في كلّ المواقف والمناسبات، المفرح منها حتى يسلب العقل، والمفجع منها حتى يحرق القلب، وهما حالتان يحتار فيهما المرء بين الصح والخطأ.

بدأ تسرب المستيقظين نحونا، حتى إنَّ كمية القهوة الزائدة في الدّلة ما عادت تكفي، فلجأت ريم إلى المطبخ لتصنع ركوة جديدة ولكن هذه المرة من البن العادي فالنساء لا يستسيغون القهوة المُرة أبداً! حركة هديل بلحاقها لم تعجبني! ولذلك سرقت نفسي من حديث المجتمعين، وتبعتهما إلى المطبخ، لقد كنت صائباً فيما راودني إذ سمعت هديل توبخ ريم بأدبٍ حزين.

- من كنت تتحدثين عنه وتنعتينه بالإجرام أخي، ومن الواجب عليك أن تحترمي المجتمعين إن لم يكن من أجلي فمن

أجل والديه، أنت تعرفين كم يحبّانكِ وكم سيكون صعباً عليهم تقبّل هذا النعت بحق ولدهم ومِنْ مَنْ؟ منكِ أنتِ!

- أنا لم أقصد أخاك بالتحديد، أنا قصدتهم جميعاً، لو تبادلنا الأمكنة، أكنت ستسكتين عن تصرف أخي بذبح والدتك، من الأفضل لك أنْ تصلي لننسى الموضوع وإنْ كنا لن ننساه، وأنْ تصلي كي لا ينعكس فعله وفعل أصحابه على علاقتنا معكم، مجرد حضورنا في بيت واحد دليلٌ على تغاضينا عن حرجنا الكبير، أفبعد ذلك تلومينني على بعض الكلمات؟

قرعت الباب بسرعةٍ وخفة ثمّ دخلت محتجاً بالعطش وبينما أنتظر الصنبور ليملأ إبريق الماء تدّخلت في الحديث:

- لقد سمعت جزءاً من حديثكما، فاسمعا مني هذه الكلمة ولتكن حلقاً في أذنيكما:

معك حق يا ريم فيما قلته البارحة واليوم، ومع هديل الحق في الدفاع عن أخيها بالصورة التي تراها، لكن غداً سيكون الحق عليك فيما قلته وسيكون الحق على هديل في ردها على كلامك حسن النية المحزون والموجوع.

ارتديت لباسي الرياضي، ودّعتهم، وهمت مشياً ولمدة ساعتين متنقلاً ما بين الشاطئ والأراضي الزراعية والحراجية، قد لا يصدق أحد وجود بيئةٍ كبيئة قريتنا المنتشرة في بقعةٍ هضابية تتوسط البحر الذي يبعد مسافة لا تتجاوز ثلاثة كيلومترات، والجبل الذي نحن نسكن جزأه السهل (سفحة جبلية واسعة) ولك ما تشاء من سحر المنظر وبهائه.

ومع الأسف فكل هذا الجمال لم يُروِّح عن نفسي شيئاً من احتقان الحزن والألم، ربما أكون أكثرهم حزناً وأبلغهم وجعاً، فقد كنت الحاضر الغائب! القاتل والمقتول! المحرّض والمدافع! الحاكم والمحكوم!.

جلست على صخرة صغيرة في بداية الحرج المُطل على البحر، أنا صامتٌ لا أتكلم، ولكن صوتاً ما من أعماقي يكاد أن يفجر شراييني وأوردتي، وخاصة تلك التي تتوزع في رأسي وحول دماغي، صوتٌ أطبق عليه بكلّ ما أوتيت من قوة فلا أسمح له بالخروج من حنجرتي إلى الفضاء الخارجي، خشية مني على الجبل فلا ينهار، وعلى البيوت فلا تُدمّر، وعلى البحر فلا ينشق أو يهوج بأمواجه فيأخذ ما يأخذه بإعصارٍ لا يُبقي و لا يذر.

خطر في بالي أنْ أحفر حفرةً كبيرة كما فعل حلاق الملك صاحب الآذان الطويلة، من يحمل عني هذا الوجع المُوثّق في ذاكرتي بالصوت والصورة، من يحمل معي هذا الحزن الفائض عن قدرتي وقدرة أهلي؟ وعن استيعابنا جميعاً.

آهٍ لو أغمض عينيّ وأفتحهما فأرى نفسي وقد مضى من العمر ما هو كفيلٌ بتخفيف آلام قلوبنا جميعاً.

الموت ليس بالشيء السهل للأحياء، افتقادهم للأعزاء كارثة أصعب من الموت ذاته، عليكِ لعنة الله أيتها «الثورة» الحقيرة، بأيّ آلاءٍ هيمنتِ على ثوارك؟ بأيّ سحرٍ سلبت ألبابهم حتى يصير في أعينهم لون الدماء مشابهٌ للون البحر متعةً وحيوية؟ وتصير حشرجة الروح في اللحظات الأخيرة شبيهةٌ بحفيف أوراق الشجر؟ ويصير لشحذ السكين على الرقاب نغمةٌ تشبه تلك النغمة الصادرة عن تحريك الريشة على أوتار العود؟ ألا لعنة الله عليك وعلى أفكارك ومؤيّديها، ومنفّذيها، وداعميها، وما أقول هذا القول لأنكِ قتلتِ أخي مع من قتلتِ، أبداً، وإنّما لأنني لم أرَ لك حسنة واحدة على الإطلاق، حتى الكذب الهائل

لم يستطع أنْ يُجمّل لك صنعة صنعتِها! أو بدعة اخترعتِها! فحسبنا الله ونعم الوكيل.

يخرجني من سهوتي صوت كلب، عرفت أنّ هذا النباح عائدٌ لكلب خالي، وتأكدت من ذلك من نداء خالي له، اقترب صوبي مستغرباً وجودي في هذه البقعة وفي هذا الوقت!

- صباح الخير يا خال، ماذا تفعل هنا؟ وفي هذا الوقت؟

- أهلا خالي، لا أفعل شيئاً، أنا أرفّه عن نفسي قليلاً، أُخرج نفسي من أجواء الحزن المُفعم في بيتنا.

- صحيحٌ يا خال ما يدور بين الناس من أحاديث حول استشهاد أخيك حيّان؟

- وماذا يقول الناس؟ كثيرةٌ هي قصصهم، فأيُّها تقصد؟

- أقصد تلك التي تتحدث عن وليد ابن جاركم، هو الفاعل وهو المجرم، وقد ارتكب الكثير من هذه الجرائم قبل ذلك، وفي اللحظة الأخيرة تاب وأعلن رفضه القيام بأيّ حركة مشابهة فقتله رفاقه، ولذلك أصررت حضرتك على وضع صورته في خيمة العزاء

- اعذرني يا خال، إذا ما قلت لك إنك تتحدث كما تتحدث الفضائيات مستشهدة بشهودٍ عيان لم يكونوا حاضرين ولا يعرفون عن الموضوع أيّ شيء!

- لا يا خال، أنا كذلك؟

- القصة ليس كما تقول! هو لم يقتل أخي أو غيره من المقربين، وإنما كان لمقتل أخي وغيره الشرارة التي أوضحت لنا ما خفي عن وجهته، وصححت ما اتخذنا عنه من صورةٍ في أعيننا، وإن كنت ترغب بسماع حكايته فتفضل وزرنا مساءً لتسمع الحكاية مُفصّلة حين اجتماع حبة المساء مع أهلي وأهله وعائلة من جيرانٍ آخرين كانوا معنا في عدرا.

- حبة المساء!!؟ وجيران من عدرا!؟ لا لا سامحكم الله بقصتكم وباجتماعكم، هذا شأن عائلي بينكم وبينهم على ما يبدو، ونحن إمّا أنْ نسمع من الناس أو لا نسمع هكذا أفضل، وداعاً.

وددت لو أقدُّ قميصه من الخلف، لأجبره على الوقوف أمامي، فقد نسي هذا الذي يسخر من علاقتنا المتينة مع جيراننا في عدرا، أنهم كانوا إخوة وأعز من الإخوة يوم احتاج أبي لكليةٍ

ولم يبقَ أحدٌ في العالم إلا واتصلنا به، وكلٌّ يتنصل بطريقته، ويتهرّب من مجرد إجراء اتصال مع أمي وكأننا سنسلب كليته من سماعة الهاتف، بينما لجأ أبو وليد سراً لإجراء تحاليل الأنسجة والدم! ووافق على غير معرفةٍ منا أو من عائلته أن يتبرع راضياً من فعلته قانعاً بأنها التضحية المناسبة للرجل المناسب، وإن الأستاذ عبد السلام سهر معنا لياليَ طوالاً في المشفى يعتني بالمرضى وأولادهم، ويصلي من كلّ قلبه لنجاتهما، وفي الوقت نفسه أشرف جارنا الثالث السيد نزار رحمه الله على كلّ حاجات بيتنا وبيت أبي الوليد من الإبرة إلى المأكل والمشرب، فعن أيّ جارٍ سأحدثه ليقنعْ بأنهم بالنسبة لنا أفضل بكثير من أولئك الذين تربطنا بهم روابط الدم والقرابة؟ وأنّه من الظلم الكبير، إجراء أيّ مقارنة بينهم، فليُحدّث نفسه وليُحدّث من يشاء فلا نحن نسينا مواقفهم، ولا هم ينكرون مواقف جيراننا، قلت في نفسي هذا القول ثمّ عدت أدراجي إلى البيت.

لوهلةٍ قصيرة المدّة جداً، نسيت المكان! وأحسست أنّ هذه الدار إنما هي بيتنا في عدرا العُمّاليّة، فلطالما رأيتهم مجتمعين بهذه اللمّة، وإنْ كانوا على غير عادة اجتماعاتهم صامتين، كلٌّ شارد

في همه وحزنه، ألقيت السلام ولم أدرِ إذا ما كان أحدهم قد ردّ عليّ أمْ لا، فاخترعت سؤالاً سريعاً لإخراجهم مما هم فيه:

- يبدو أنني قد تأخرت عن الفطور، أليس كذلك يا زوجة أخي؟ ما بكم لا أحد يرّد؟ ريم هل فطرتم؟

- لا لم نفطر، ما زلنا كما تركتنا، صنعنا المزيد من القهوة والشاي والزهورات وجلسنا كما ترانا.

- حسناً، أجدك أكثر الموجودين نشاطاً، تفضلي معي لنصنع فطوراً يليق بهذه الجمعة، فطوراً قروياً لن ينسى أحدٌ طعمته، وستبقى لذّته مرافقة لذكرى اجتماعنا في هذه الدار، هيّا بنا، فأنا أعرف كيف سأداوي الإطباق المحكم لأفواهكم.

في المطبخ راقبت ريم عن كثب، يا سبحان الله! وكأن أمها هي التي تتحرك أمامي، فتفتح «الثلاجة» لتُخرج اللبنة، والبيض، والزبدة، والبندورة، والخيار، ذات الأصابع الطويلة الساحرة التي كانت تمسح رأسي وأنا صغير، ترشُّ الآن النعناع اليابس المفروم! ذات الابتسامة التي كانت فيما مضى تستقبلني وتودّعني بها الأم في صيدليتها، الآن أراها كلما أنهت ترتيب صحنٍ ما أو مادةٍ ما من مواد الفطور!

- أتظن نفسك تساعدني أم تراقبني؟

- وهل يزعجك أنْ أراقبك؟

- من الطبيعي جداً أنْ تنزعج الفتاة من المراقبة وخاصة إذا ما سبقها حديثٌ مبهم! أعتقد أنك تعرف ما أقصد؟ حديث وليد وما فعله من أجلي؟

- أنت ذكيةٌ جداً، وأنا أعجب بطريقة الكلام التي تصل إلى مبتغاها من الإجابات! ألم يحدثك والدك؟ ظننته أخبرك بكلّ شيء؟

- خجلت أن أساله عن هذا الموضوع، وبالمقابل لم يأتِ عليه وفضّل بقاءه سراً.

- يعني أنتِ تريدين الاستفسار عن هذا الموضوع مني؟

- من أوصد الأبواب يفتحها ومن أشعل النيران يُطفئها.

- هذه الأبيات لنزار قباني أليس كذلك؟

- تقريباً، ثقافتك الأدبية جيدة، رغم أنّ دراستك علمية بحتة!

- هذه ثقافة، العلم شيء والثقافة شيء آخر.

- أنا أصغي لأسمع، أعتقد أن مجيئنا كان لهذا السبب؟

- الفطور جاهز، وعلى قدر أكلك ستسمعين مني جواباً لسؤالك.

- حسناً، هذه المرّة تهرّبت، سأرى في المرة المقبلة كيف ستتمكن من الهرب.

الجميع شاركنا الفطور، تناولوا لقماتهم على مهلٍ وكأنها تُدسُّ بالغصب، وحدها كانت تراقبني بنظراتٍ لا تنكسر، وإن وقعت مباشرةً على نظري.

كسرتُ الصمت الحزين بالكلام مع أمي:

- أمي لقد رأيت خالي في الحرش القريب، حمّلني سلاماتٍ كثيرة لكم جميعاً.

هزت رأسها معلنةً وصول أمانة السلام، لكنها لم تجب بأيّ كلمة، ففضلت الخروج إلى الشرفة الأرضية، لأستمتع بالظل الذي أحدثته الدالية الكبيرة.

- عن ماذا تبحث؟ ماذا تحاول أن تفعل؟ أحاديثك لن تجدي نفعاً في كسر جليد الصمت!

- وهل يجدي الصمت نفعاً في إطفاء نار الحزن؟

- هل عليك أن تجب عن كلّ سؤالٍ بسؤال؟

- لا أقصد ذلك، إنما أحاول اختصار الزمن والوصول إلى ما أريد دون معاناة.

- هنا بيت القصيد تماماً، ماذا تريد؟

- ريم أنتِ مشاغبة، وصراحةً تليق بكِ هذه المشاغبة، أريد أنْ أسترجعَ الماضي، قد تضحكك هذه الجملة؟ لكني مصممٌ على ذلك، كيف؟ ومتى لا أعرف؟ كلّ ما أعرفه أننا دخلنا في قضيةٍ معقدة ومعقدة جداً، وعلى المستويات كافة وإن لم نتدخّل في حلها فالمشكلة إلى اتساع، ماذا لو أفاقت والدتي من صدمة وفاة ابنها ورأت أم وليد رؤية البصر والبصيرة؟ واستمعت إلى فلانة وعلانة تحريضاً وتلفيقاً؟ ماذا لو رضخ والدي إلى الضغط الهائل المطبق من رجال القرية - أقارب وشيوخ - وغيّر بلحظةٍ غادرة رأيه بأبي الوليد وتحول حبه إلى ضغينة؟ ما النتيجة؟

- ونحن لِمَ جلبتنا؟ ألنسمع أعذارك المُختلقة لوليد على تصرفه الإجرامي بقتل أمي؟ جريمةٌ، ما تفعله، تبييض صفحة

مجرم، جريمة، وإنْ كان هذا المجرم ميتاً فهذه جريمة أخلاقيةٌ كبرى! لأنك بذلك تبيّض نهجه وطريقه الأسود، القاتل قاتل طالما هو حي، أمّا بعد وفاته فالقاتل عبارة عن نهجٍ علينا تجنبه، وتحذير الاقتراب منه، ولعنه ولعن السائرين عليه، كلامك والصورة المعلقة لن تمحو الجرم الذي اقترفه، ولن تعطر رائحة فعلته التي تزكم الأنوف قرفاً ومقتاً.

- صحيح، أحسنتِ، كلامك يُثبت حسن ظني بذكائك

- أتسخر مني يا علي؟

- أبداً، لو كان وليد مجرماً لكنتُ أكثر إجراماً منه إذا ما حاولت التستر عليه وعلى فعلته، رحم الله والدتك أورثتك كلّ شيء من الذكاء، والجمال، والأناقة، والحضارة، ولكنها لم تورثك الصبر! لابد أنّها استشعرت صعوبته فأبعدته عنك.

- دعك من هذا الكلام، وتحدث إليّ كمدّعية تطالب بأن يدفع المجرم حياته وما بعدها، ثمناً لقتله نفساً بغير حق، ألمْ يُشرع القرآن الكريم ذلك في آيته: ﴿**ومن قتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً**﴾. (النساء ٩٣).

- ممتاز أنتِ تحفظين بعض الآيات من القرآن الكريم! وتريدين مُحاجحتي بالكتاب السماوي بالأسلوب نفسه الذي اتبعته مع وليد ونجحت به نجاحاً مُبهراً.

- نجحت به!؟ هذا شيءٌ مُضحك، نجحت به واقترف وليد مع جماعته ما اقترفه ذبحاً وقتلاً! فكيف لو لم تنجح؟

- ألم أقل لك إنَّ والدتك لم تعلمك الصبر، سأكتفي بهذا القدر لأجُبرك على حضور اجتماع حبة المساء بوعيٍ أكبر وبإصغاء أفضل من ذي قبل، اعذريني لدّي بعض الأمور المُعلقة بما يخص شهادة الماجستير وأريد حلّها عبر الإنترنيت، أراك مساءً.

عندما دخلت غرفتي، أوصدت الباب ورائي وكأنني خائف من أن تلاحقني بأسئلتها المُحقّة، فتاةٌ ذكية وعنيدة! كان عليّ مواجهتها وصدّها على الفور إلا أنّ ذلك سيستهلك مني وقتاً طويلاً، وإعادة للكلام الذي سأقوله مساءً، خيرٌ ما فعلت يا علي، إقناعها أمام الشهود سيكون أمتن وأكثر قبولاً من إقناعها إفرادياً.

بحكم العادة عُقد الاجتماع الثاني وانتظرت هديل إلى أن تنتهي من تقديم كوبيّ الماء لمبتلعي حبة المساء ثمّ بدأت الحديث:

- جميعكم متشوقٌ لمعرفة تفاصيل ما حدث في عدرا العُمّاليّة! وعلى الأقل ما حدث في بنايتنا! أنا لا أماطل في الحديث، لأبرر كما اعتقدَ بعضهم، هذه مسألةٌ مُعقدة، والتّسرّع في فك شيفرتها سيدخلنا في مسألةٍ أكثر تعقيداً، لي غايةٌ من إطالة الحديث! فإذا لم أتمكن من تحقيقها فلمَ قمت بجمعكم؟ إنْ تصبروا وتحصلوا على الحقيقة صافية ونقية من كل ظن، أليس أفضل من حصولكم على أجزاءٍ منها بشوائب ونواقص تحتاج إلى حقائق كثيرة لتتضح فيها الصورة؟ أنتم تريدون اختصار الحكاية! الكلّ يتساءل عمّا يخصه، وعن علاقة هذه الخصوصية بوليد، المسألة أكبر من ذلك يا جماعة، القاتل ليس إنساناً متمثلاً بوليد أو غيره، القاتل فكرٌ يجب أنْ نحلله، وندرس أسباب تكوّنه وتكوينه، وما هي السبل المثلى لتخفيف ما أمكن من وقع آثاره، أو تخفيف خسائرنا جراء وقوعه، وإن أمكن اجتثاثه من الأصل ومحاربته؟ وإخراجه من حدود بلادنا بإخراجه من العقول أولاً، وبمحو تأثير نتائجه على القلوب

ثانياً، وهذا رائع، علينا تحويل هذه الأزمة إلى«لقاح مناعة» كي لا يَعُدْ في قادمات السنين، ثانيةً، قد لا يُقنع كلامي بعضكم! وتأبى عقليته التفكير بغير السؤال عن وليد، هل وليد مجرم؟ وهل وليد بريء؟ هل مات وليد قاتلاً؟ أم مات شهيداً؟ أم مات لا هذا ولا ذاك ميتة ربه؟

من يُردْ تقزيم حالة الأزمة إلى حالة وليد؟ فقد أجرم بحق نفسه وبحق المتضررين (شهداء كانوا أم مخطوفين أم مُهجّرين) وإجرامٌ بحق العدالة الإنسانية التي لن تسامح أحداً منا أو منهم على التقصير.

- لِمَ يكون ذلك إجراماً؟ العدل يجب أن يفرض ميزانه، وإلا ما نفع العدالة الإلهية، والكتب السماوية، والرسل، والأنبياء الذين قالوا ما قالوه وسنُّوا ما سنُّوه في العدل كالسيد المسيح مثلاً عندما قال: (أيدْ عدل الله الذي يشاء أن يبلغ إلى شتى الناس)؟

- عرفت أنك ستسألين لأن ذكاءك مُعاند، وأعذر تعصبك، فما زال الجرح غضاً، ولا أقلْ جرحك لأننا في المُصاب معاً، إجرامٌ بحق النفس لكلّ من أراد معرفة الحقيقة منقوصة،

وإجرامٌ ما حدث بحق المتضررين لأنهم ماتوا ولاقوا ما لاقوه، فقط لأنّ مجرماً ما، أحبّ أن يُطبق طبيعته أو طبعه على مجموعةٍ ما من الناس، لقد استشهد من استشهد دفاعاً عن فكرة الحياة لنا جميعاً، لا دفاعاً عن نفسه، وإجرامٌ بحق الإنسانية لأننا نُنهي القضية برمّتها بمجرد معاقبة وليد وجماعته على فعلتهم، متناسيّن محرضيهم وداعميهم ومسهلي مرورهم، وتسللهم، وناشري عقائدهم بكل الوسائل المُتاحة، الإنسانية تسأل عن كلّ هؤلاء! فهل نطالهم ونطالب بعقوبتهم جميعاً؟ فهل نقدر على معاقبتهم؟ بماذا نجيبها؟ أنقول لها أخذنا حقك بقتل وليد ومن معه؟ هل يُلخَّص وليد في شخصه - إن كان مجرماً- كلّ هؤلاء السفلة؟ وبمجرد موته نكون قد انتقمنا لأنفسنا، ولأحزاننا، ولمتضرري الأزمة، وللإنسانية؟ هذا هو الإجرام، وكي لا تتهميني بالتهرّب من الجواب المباشر، سأجيبك وليسمعني الجميع مثلما ستسمعني ريم:

وليد لم يرتكب أيّ جريمة! لم يقتل أحداً لا جنان الصيدلانية، ولا أخي حيّان، ولا غيرهما، وليد كان ضحية للفكر. نعم، ولا أستطيع أن أنكر، ولكن كيف صار هكذا؟

وكيف عاد إلى الهداية؟ فهذه هي حكايتي، وإن أردتم أن أوضح لكم المغزى بشكلٍ مباشر فأنا جاهز؟ وليعذر الجميع عصبيتي، فما هي من طبعي ولا هي نتيجة لتحدٍّ ما، من ريم أو من غيرها، فأنا أحبّها وأرى فيها خالتي جنان، ومداعبتها لطفولتنا، وكرمها مع رغبتنا بتناول البسكويت المُدعّم، وأرى فيها والدها الحازم في تأديبنا، وتعليمنا المدرسي، وأرى فيها مرحي ووليد في ملاعبتها، إذ كانت صغيرة بعمر البرعم.

- أنا آسفة يا علي، أخذ مني الحزن على أمي كلّ الوعي، والعاطفة، والتفكير، وأعدك أن أصبر حتى نهاية القصة، وليرحم الله شهداءنا، تفضل فكلّي آذان صاغية؟

- حقيقة الأمر كانت الغلبة لهم في البداية، فهم كُثر وأنا واحد، وهم على صلةٍ وتماسٍ مباشرٍ معه ومع عقله وتفكيره، بينما أنا لا أستطيع التواصل معه إلا عبر المواقع الإلكترونية، وحين يشاء هو! وبعد أن يُتْخِموه بما لم يُنزّل الله به من سلطان، فكان عليّ أَن أحمي معدنه الطيب الأصيل من السرطان العقائدي المتفشي بكلّ نواحي جسده وفكره، ولذلك لجأت إلى الذكريات كخير وسيلةٍ للدفاع عن الجذر المتأصل،

المعجون بالطيبة، فتارة أذكره بأهله، وتارة أخرى بأهلي، ومن ثمّ بالمدرسة واللعب مع أولاد الجيران، وأذكره بلذّة السباحة على شاطئنا الرملي، ورحلات الصيد مع خالي، وطواقم الأطباء والممرضين في المشفى، وغيرها الكثير من الذكريات، إلى أن حدث ذات تواصل، ما يلي، وذلك عندما أتينا على ذكرى المرض و الدواء والطب والصيدلة، فذكرنا أمك يا ريم، وكانت هذه المحادثة الطويلة، فليشاهد الجميع وليستمع مني:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليك سلام الله، ظننتك لن تفتح حسابك هذا المساء!

- أنا آسف على هذا التأخير البسيط، لقد ذهبت لشراء دواء لالتهاب اللوزات، بلعومي يؤلمني جداً.

- يبدو أنك تأخرت في علاجه كثيراً! فمن غير الممكن أن يؤلمك كلّ هذا الألم بين ليلةٍ وضحاها!

- فعلاً لقد تأخرت، الحمد لله، مرضٌ بسيط ولا يُعيقْ في شيء من الدراسة أو من العبادة، قالوا لي سيأخذ أبعاده مع دواء ومن دون دواء! يعني في كلّ الحالات سبعة أيام.

- من قال لك؟

- المدرسون والأساتذة.

- آآآ... تقصد الشيوخ؟ من أين لهم أنْ يفهموا في أمورٍ كهذه؟

- أرجوك يا علي، لا تتجاوز الحدود، كي لا تجبرني على الإغلاق، لقد مارسوا كلّ معرفتهم في شفائي، ولولا ذلك لتعاظم الداء والألم.

- وليد، فلنتحدث حديث العقل والمنطق، ومن دون أيّ تهديد بالإغلاق، وإذا ما أغلقت فأنا سأعدُّ نفسي صاحب العقل والمنطق، وسأعدُّك صاحب الحجة الواهية، وقد أنسبُ إغلاقك للحساب إلى ضعفك العقلي والمنطقي، موافق؟

- ماذا تريدني أن أقول لك بعد هذا التقريع؟ موافق طبعاً.

- أنت أصبتْ بالمرض، عافاك الله وشفاك بأسرع وقت، ما هي هذه المعرفة الطبية التي طبقها عليك أسيادك؟ أو مشايخك؟ أو أساتذتك؟ سمهم ما شئت لكن تفضل وأخبرني؟

- بصراحة تامة وضع أحدهم يده على عنقي وتلا بعض آيات القرآن الكريم. فهل تعارض ذلك حتى أصفك بالملحد الذي لا يؤمن بالله، وقدرته، وقرآنه؟

- معاذ الله، أن أكون كما يدور في رأسك ولكن هل لي بسؤال؟

- تفضل يا (ابن خلدون).

- برأيك من أكثر الناس تطبيقاً للقرآن وأحكامه؟ أليس هو سيدنا محمد (ص)؟ جوابك نعم من دون شك، وعليه إذا كانت هذه الآيات كما تصف فلِمَ قال في حديثه الشريف: (تداووا فإن الله لم يُنزل داءً إلا وأنزل معه الدواء)؟ ثمّ لماذا اضطررت في نهاية الأمر إلى شرب دواءٍ مضادٍ للالتهاب؟ أمّا شعرت بأنك وضعت نفسك أمام إحدى حالتين؟ الأولى إنّ الله لم يستجب لك ولمشايخك وبالتالي لا كرامة لك ولهم عند الله، والثانية ارتكابك لإثم تناول الدواء؟ وأنا متأكدٌ أنك تناولته خفيةٍ وبالتالي إنّ كان تناوله إثما فقد خفت من مشايخك ولم تخف من ربك.

- لِمَ تُكبر الأمور لهذه الدرجة؟ أنت مُصرّ أن تتقمص شخصية ابن خلدون، هي حبة دواء لا قبلها ولا بعدها!

- لست أنا من يُكبّر الأمور و يضخمها، أنت من يفعل ذلك، هي حبة دواء! وحضرتك لم تُفصل منطقياً حلالها من حرامها، لو قلت في نفسك إنْ استحيت من سؤالهم: كيف لهذه المحرمات أنْ تلقى قبولاً في المجتمع السعودي؟ وكيف يُفتح لها صيدليات كثيرة وعلى عين من تسمي نفسها جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ كان عليك أنْ تعرف أنّ الله سبحانه لن يستجيب لكم لأنّ شرط الدعاء، الطاعة لله واليقين الكامل بأن من تدعوه قريب ويسمع دعاءكم.

يا وليد أعقلها وتوكل على الله في الشفاء، عليك اتّباع السبب للشفاء بالتداوي.

بالمناسبة يا وليد يا حبذا لو تتذكر مع كلّ دواء تتناوله لالتهاب اللوز الأيام التي قضيناها بلذة الطفولة حينما انشغل أهالينا بعملية استئصال لوز حيّان أو تتذكر ما قبلها تلك اللحظات التي كان يسرقنا فيها الزمن في صيدلية جنان لنصف ساعة أو أكثر بينما أمي تنتظر وصول مضاد الالتهاب والمخفضات الحرارية على أحر من الجمر لتُسكن حالة حيّان.

- أكلما فتحت سيرة الذكريات لصقت جنان وصيدليتها! أكانت بقيةٌ من عائلتنا؟! لو كان في عدرا العُمّاليّة غيرها لَمَا لجأنا إليها.

- هذه لهجةٌ جديدة! بل أستطيع القول إنها مُعيبة! أنت تقول ذلك؟! أنت الذي ما كان يهنأ لك الخروج من البناية إن لم تودع ابنتها ريم، ولا يهنأ لك الدخول إلى بيتكم إن لم تلاعبها قليلاً، أكانت حينها بقيةٌ من عائلتك؟! فما عدا ما بدا؟ في الأمر سرٌّ مفضوح وكأن نتانته بدأت تزكم الأنوف! فاستدرك، وطهّر قبل أنْ يُشار على منطقه بالبنان، وقبل أنْ تمتد قذارته لتشمل غير ما شملت أهلي وأهلك.

- كيف تقارن أهالينا بمن ليست على ديننا؟

- قف لا تكمل، ألم أقل لك في الأمر سرٌّ مفضوح؟ أما كانت جنان تستقبلنا في بيتها وصيدليتها كأننا أولادها؟ أمَا كانت تعتني بنا وبضيوفنا حينما أجرى والدانا عملية التبرع بالكلى؟ أما كانت تجلب ما ينقصهما من دواء من دون ثمنٍ أو حساب؟ أما كان زوجها يبذل قصارى جهده في تعليمنا؟ أما

اعتبرناه مرجعنا وأخذنا رأيه في قضية المتآمرين على والدينا؟ أمّا كان يُغطينا لننام في المشفى بينما يبقى هو ساهراً على راحة وسلامة مريضينا؟ بلى كانوا ولم يتغيروا، أنت وحدك من تغيّر! كنتَ وليد السوري وأصبحت وليد الوهابي! وشتان شتان بين ما يفكران به وبين ما يضمرانه.

- لقد تجاوزت حدّك، وضربت في عرض الحائط صداقتي معك، وقصمت ظهر البعير بجملتك الأخيرة، وقصصت ما بيني وبينك من صلة، فلا تلومني إذا ما انقطعت عنك، فقد فرقت ما بيننا بلسانك الذي لم تصنه، وباستحقارك لِمَا اعتقده، هذا فراقٌ، فلا ثوبك من ثوبي، ولا يستوي الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون.

- وهل أغلق فعلاً حسابه ولم يتواصل معك؟

- لا، لا لم يفعل، هو تكلم كمن وقع تحت تأثير السحر، إنّ اللحظة التي يفيق فيها المسحور، لحظة ليس فيها اتزان عقلي أو منطقي، أغلق حسابه لفترة أيام ولكنه عندما عاد إليه ووجد رسالتي، أعاد تواصله معي.

- ما كان في رسالتك حتى أعاد تواصله معك؟ أودُّ معرفة ذلك إنْ لم يكن لديك مانع؟

- أبداً يا أستاذ كتبت له فيها:

أغلقت حسابك يا جبان! هربت من المواجهة! إنْ لم تود محادثتي فأرسل لي رسالة واحدة، جواباً واحداً، ما كنت تقصد بجملتك الأخيرة؟ أيّ شيءٍ تعلمه أنت أنا لا أعلمه؟

- رسالةٌ استفزازية جيدة! وما كان جوابه؟

- أعاد تواصله بعد يومين، مبتدئاً بآيةٍ كريمةٍ، ثم أكمل قائلاً:

سأرد عليك عندما أعرف كيف وصل الفارق بين مستواي ومستواك إلى الدرجة التي ظننتَ نفسك فيها عالماً لا يُقارن شأنه مع شأني أنا الجاهل الذي لا أعلم؟

- هل سألت نفسك يوماً من هم الضالون؟ هل عرفت أنّ المقصود بهم الذين أبوا الدخول في الدين الإسلامي؟ وأنت لا تنفك عن سيرة جنان وعبد السلام وريم، كلما شئت أن تحدثني عن الذكريات، ألم يبقَ في ذاكرتك سوى الضالين؟

- في الحقيقة لم أسأل نفسي يوماً هذا السؤال، أثابك الله على ما هديتني، وأنا لا أدري! وأتعامل معهم معاملة الأخوة! وأتلقى تعليمي منهم! أيعفو الله عني إذا ما تبت إليه واستغفرته؟

- بلى يا أخي، إنّ الله غفورٌ رحيم.

- غفورٌ رحيم!! والله لا أدري كيف ستسع رحمته غباءك؟ وغباء مشايخك الذين فسروا لك هذا التفسير؟

- أكلّ هذه المحاضرة من أجل بعض الذكريات التي تخص «الست» السيدة جنان وصيدليتها؟ حسناً... حسناً كنت أعرف أنّ الحديث معك ورطة، أريد أن أتابع دراستي فهل تريد مني شيئاً؟

- أريدك أن تسمع قبل أنْ أنسى، أنا جئت إلى روسيا لأتعلم ولأعود إنساناً مفيداً لبلدي، أما ما تتكلم عنه فأنا بعيدٌ عنه كلّ البعد، ربما لم ينصحك أحد بأن تراقب و تستفسر عن كلّ شيء، فتتعلم ما ينفع وتتجنب ما يضرّ.

- أنت لا تسكت عن حقك أبداً! نلتقي غداً.

- وداعاً أيها الهارب دائماً من منتصف الطريق.

- من الطبيعي أن يُغلق حسابه، أنت تصدمه دائماً، تقلب عليه أفكاره، تحيّره بجهة الطريق الواجب اتّباعها، تُشعره بتجميد عقله وتفكيره.

- صحيح يا أستاذ، أنا أحاول دائماً كسر القالب الذي تحجّم به أو وُضع به، لقد كانت مسألة شاقة أكثر مما تتصور، فقد أحسست أنني أمام حالةٍ عماء بشكلٍ كامل، والحذر بالتعامل أولوية قصوى، كلّ كلمة لها تأثير، إنها معركة الفكر للسيطرة على العقل البشري.

- ما رأيك يا علي لو تكمل؟ لقد بدأت الإثارة والتشويق في حديثك، وكأننا أمام نهايةٍ ملحمية كتلك التي تنتهي بها الروايات العالمية!

- غداً أكمل، لقد أرهقنا مريضينا ونساءنا، ثمّ إنّ زيارتكم لنا ليست فقط لسماع قصتي، هناك أمورٌ عائلية كان من العادة قصها في اجتماعات بناية عدرا العُمّاليّة، أنا أستأذن لدّي بعض الاتصالات الإلكترونية مع أصدقائي في روسيا.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على قرعٍ ناعمٍ لباب غرفتي ثمّ تبع ذلك القرع صوت ريم الناعم:

- علي... علي، أنا سأصنع القهوة هيّئ نفسك لاحتسائها معنا.

- حاضر يا ريم، سأسبق رائحتها إلى الشرفة، سارعي لقد تأخرت عن مشواري الصباحي.

جلسة صباحية رائعة وقهوة لذيذة! متى سيكون الفطور؟ لأعود في وقته فلا أؤخركم، أم م لا أحد يرد! يعني أنا سأعمل الفطور للمرة الثانية، هل يريد أحدٌ منكم أي شيء قبل خروجي؟

- نعم أنا أريد أن أخرج معك، ألا تراني أرتدي لباساً رياضياً؟

- تفضلي قبل أنْ تشتد الحرارة، ساعة ونصف ثمّ نعود، إلى اللقاء.

شعرت أنّ لخروجها معي غايةً غير الرياضة! ولم أتظاهر بتجاهل هذا الشعور، بل إنني بادرتها بالسؤال فور استلامنا للطريق الحراجية.

- ريم أيّ حديثٍ تشائين فتحه؟ أنتِ لم تخرجي حباً بالرياضة.

- صراحة آراؤك ومشاعرك تعجبني، ولذلك سأبادلك الصراحة بالصراحة، أخبرني ماذا فعل وليد من أجلي؟ ولماذا دارت الشبهات على وليد فور وصول الخبر المأساوي بذبح أمي؟ إيّاك أن تعتذر عن الجواب، وإيّاك أنْ تدفعني إلى أبي، أنا أريد الجواب منك أنت بالتحديد، أرجوك... أرجوك يا علي.

- حسناً يا ريم كان ذلك في شهر كانون الأول من عام ٢٠٠٩أنتِ تذكرين قدوم وليد بعد غياب دام قرابة خمس سنوات؟ كانت أول مرة ألتقي به مباشرةً وأقول مباشرةً لأنني وقبل هذا الموعد كنت ألتقيه بالصوت والصورة عبر بعض المواقع التي تتيح هذه الخدمة.

- أذكر تماماً وأذكر أنك ذهبت مع الرجال لاستقباله، أنت قدت سيارة المرضى والسيد نزار رحمه الله قاد سيارته مصطحباً أبي.

- بالضبط، لقد تفاجأ الجميع بمنظر وليد، أنا الوحيد الذي عرفته، صدقيني لم يعرفوه، ولمّا عرّفتهم به بادروا خجلاً إلى

مصافحته وتقبيله، حتى إنّ أباه رفض الاقتراب! تجمّد في مكانه، قدحت عيناه شرراً، خشيت أن يلكمه بدل مصافحته، لم ينبس بأيّ كلمة على الطريق، أوقفني بحجة شراء الماء فإذا به يشتري علبة دخان وعلبة كبريت، لم يرد على وليد الذي بدأ ممازحته بضرر الدخان وحرمته، ترجّل من السيارة إلى غرفة نومه مباشرةً، تهرّب من ملامح ولده الخليجية وأشفق على نفسه من التصرفات التي سيحدثها رجل بمنظر وليد.

- تقصد رفضه مصافحتنا؟ وثني وجهه عنا باتجاه الأرض؟ واستغفاراته المتواصلة عند سماع صوتنا ونحن نسأله عن صحته ودراسته؟

- نعم، لقد تأزمت حال العم أبي وليد، ولم يتقبّل ما آلت إليه حالة ولده، وعلى مضضٍ كانت جلساته معنا، وبمشقةٍ تشبه طلوع الروح كانت أحاديثه معه، يسأل كرؤوس أقلام ويجيب بنعم أو لا فقط، هكذا إلى أنْ انفجرت الحكاية معه وكنت أنتِ عود الثقاب في الانفجار.

- أنا! وما دخلي أنا بالموضوع؟

- لا دخل لك سوى أنّ السيد وليد أُعجب بك أيّما إعجاب وأراد الزواج منك، وذلك لسببين بحسب رأيه، الأول الرجل أحبّ أن يُكمل نصف دينه، والثاني الرجل أحب هدايتك وإخراجك من الضلال إلى الإيمان ومن الظلمات إلى النور، فقامت قيامة والده، وبقيتِ محور الجدل بينهم من تاريخ ٢٠ /١٢ إلى تاريخ ٢٤ /١٢ يوم عيد الميلاد، حيث كانت زيارته الأولى لكم بحجة معايدتكم، كنت أصور بكاميرتي الديجيتال وقائع الاحتفال ومشاركتنا لكم كما هي العادة، فهذه الأفلام كانت مصدر فخرٍ واعتزازٍ لي أمام رفاقي الروس، وفي منتصف الحفل استغل وليد انشغالكن كنسوة مع أولاد السيد نزار بالمرح والتسلية وطلب أمام جميع الرجال يدك للزواج، لقد بُهتَ والدك من طلبه، فلم يأتِ بأيّ حركة أو كلمة، بحث بعينيه عن منجدٍ ينقذه من التورط بصفعه، أو طرده خارج البيت، إلا أنه احترم الجيرة وبقي مصراً ومستنجداً... ويا رب ، انبريت له كفارس دمشقي لا يأبه بالموت قائلاً بصيغة السؤال:

- هل طلبك فرض أمرٍ واقع أم رجاء؟

- رجاء طبعاً، وهل تحدث هذه المسائل بالفرض والغصب؟

- يعني لهذه المسائل أصول؟ والأصول لا تُفرض، كان عليك إخبارهم من قبل بغاية الزيارة.

- ومنذ متى نتصرف هكذا؟ هل معتادٌ أنت على ذلك؟

- أنا؟ لا، أما أنت فعليك أنْ تفعل ذلك، لأنك لم تعُدْ من أهل بنايتنا، وأكبر دليل أنك هنا منذ خمسة وعشرين يوماً ولم تطأ قدماك هذا البيت؟

- أنا قادمٌ في إجازة لأقضيها مع أهلي، فلِمَ الخروج إلى هنا؟ أو إلى غير هذا المكان؟

- لأن الـ (هُنا) الذي تذكره هم أهلنا أيضاً، وإجازتنا إليهم مثلما هي إلى أهلنا الحقيقيين.

- هذا الكلام خارجٌ عن الموضوع برمته، وأنا أطلب يد ريم بنت الأستاذ عبد السلام، ومن ليس له شأنٌ بذلك فلا يتدخل.

- كلّ الموجودين أهل ريم، وعليك أنْ تأخذ موافقتهم بالإجماع وبعد ذلك موافقتي.

- يا عم أنا لم آتِ متحدياً! بل أتيت طالباً يد كريمتكم، وكلامي مع علي بالمونة لا أكثر ولا أقل، ثمّ طالما يدعي علي

الديمقراطية والحرية فأين هو رأي ريم؟ هل تفصلون على مزاجكم تلك الديمقراطية؟

- ماذا تقصد؟ كأني فهمت ولم أفهم؟

- مرةٌ أخبرتك عن أمنيتي، بإبعاد حيّان عن هديل حتى يتم الأمر بشكلٍ أصولي ورسمي فما كان جوابك؟ أنا سأذكرك بما قلته بالحرف الواحد (ما رأيك لو توقف دراستك وتعود إلى منزلك عسى أنْ تتحكم بهديل فتسمح لها بمنح مشاعرها أو كبتها) فلمَ عليّ أنْ أكون ديمقراطياً مع أختي ولا تكونوا أنتم كذلك مع بناتكم؟ ألأنني مسلمٌ وهي مسيحية؟ أجب يا علي؟ ألم تنغل رأسي بحكاية الحب والعشرة والحياة والألفة وما شابه ذلك؟ أم انسحبت؟ هل كان كلامك ذراً للرماد في العيون؟ من حقي أن أطلب العروس التي أشاء، ومن حقها أن توافق أو ترفض، وليس من حقكم أبداً سلبها هذا الحق.

- معك حق وأنا أبصم لك بالعشرة، لكن أليست ريم من دين غير دينك؟ أجب ما بك؟ هل يجوز أن يتزوج الرجل المؤمن من غير دينه؟ أم تتصرف ضد قناعتك وعقيدتك؟

- أنا لا أتصرف ضد قناعتي، إن وافقت فعليها أن تعلن إسلامها وإلا فلا نصيب، أنا ذاهبٌ الآن إلى بيتنا، أخبرها يا أستاذ إن كانت موافقة فمهرها بيت وسيارة ورصيد يفوق الثلاثة ملايين ليرة كحسابٍ باسمها في أيّ بنكٍ تشاؤه، وسأشتري لها ذهباً خالصاً بالمقدار نفسه.

- هل عرض كلّ هذا يا علي؟ من أين له كلّ هذه الأموال؟ لمَ لم يخبرني أحد؟

- لأنني أفشلت الموضوع من أصله، بطلبٍ من والدك ولم نشأ إشغالك به وأنت طالبةٌ في الثالث الثانوي العلمي.

- مشكورون، ولكن كيف اقتنعَ؟ لا أظن أن إقناع أشباهه من العقليات المغلقة كان بالأمر السهل!؟

- بل كان سهلاً وأكثر مما توقع الجميع، حديث منفرد ولمدّة خمس دقائق وانتهت القضية.

- بسرعة ما هي مجريات الخمس دقائق؟

- أسئلة وإجابات من قبيل، لِمَ ريم بالتحديد؟ ماذا لو فضلت إكمال دراستها؟ ماذا لو رفضت تغيير ديانتها؟

فكان الجواب الحب القديم لكِ، والانتظار حتى الانتهاء من الدراسة، والصبر للاقتناع بتغيير الديانة، ثمّ سألته السؤال القاصم، ماذا لو أرسلت الفيديو المصور في حفلة عيد الميلاد، حيث أنت مشارك في المعايدة إلى إدارة جامعتك، وبالتحديد إلى عميد كلية الشريعة الإسلامية؟ فكان جوابه الانسحاب من المشروع، ولكنه ترك لك أمانة مع والدك ولا أعرف متى سيسمح لنفسه بأدائها لك إن لم يُغير رأيه.

- يعني لا أستطيع معرفة الأمانة؟

- كانت سراً! وستبقى كذلك حتى يعلنها والدك، وهيّا بنا لنعود، فقد تأخرنا كثيراً، وسرق الحديث منا الوقت والمناظر الجميلة.

في البيت كانت نظرات ريم مليئة بالإعجاب وكأنني مخلّصها المُرسل من الغيب! المُنقذ الذكي، المُبدع الخارق، ومن أجلي حضّرت الجلسة المسائية، بأحلى ما يكون من العصائر والحلويات.

شعرتُ أنّ لحديثي تأثيراً رائعاً في السلو عن الأحزان، إذ أصبحت الأحداث التي مرّت على وليد، إضافة إلى سرِّ موته،

الشغل الشاغل لأهله ولهديل، وأصبحت علاقة وليد باستشهاد السيد نزار وعائلته، واستشهاد السيدة جنان واستشهاد الملازم أول حيّان، الشغل الشاغل للبقية، حتى أمي وجدت في حديثي بعض الراحة لقلبها المُتعب ومأوىً وثيراً لسكب الدمع دون مشقةٍ! بكاءٌ ناعمٌ مواكبٌ للشرود في فضاءٍ غير معروفٍ وغير محددٍ وغير مرئي لغير عينيها إنّه بكاء الذكريات.

- هات يا ولدي، أكمل ما كان من وليد ومتغيراته ومنك ومن دفاعاتك، ومحاولاتك لتخليصه من براثن هؤلاء المقنعين بقناع الدين الساترين فكرهم الأسود تحت شواربٍ محلوقة ولحىً طويلة.

- في نهاية عام ٢٠٠٨ تحول الموقع الإلكتروني إلى ساحة قتال بالكلام الأبيض وذلك على أثر تخرّج حيّان من الكلية الحربية، ومبادرته الخاطفة والسريعة بإرسال أمي إلى أم الوليد معلنةً لها ولزوجها رغبته بالتقدّم لطلب يد ابنتهم هديل، وبذلك يتحقق حلمه المنتظر منذ سنين فتكون الفرحة فرحتين.

كان ذلك في منتصف الشهر العاشر حيث تفاجأت باتصال حيّان بي ليخبرني بأن وليد أوقف المشروع بحجة التريُّث حتى صدور التعيينات الوظيفية لخريجيّ المعاهد المتوسطة، رجاني كثيراً أن أحادثه عسى أن يستطيع كلامي تعديل رأيه، والسماح بإجراء الخطوبة، أنا لم أتصرف بأي شيء، قمت أولاً بالاتصال مع العم أبي الوليد، أتذكر يا أبا الوليد؟

- نعم أذكر سؤالك لي، ماذا لو لم يوافق أبداً؟ فأجبتك هو حر معه شهر ونصف، إنْ وافق فأهلاً وسهلاً وإنْ لم يوافق فموعد الخطوبة سيتم بعد شهر ونصف وهو موعد إجازتك السنوية، وعليه فإما أنْ يحضر ليُبارك أو ليضرب رأسه بكلّ جدران جامعته.

- ما شاء الله ذاكرتك قوية، هذا صحيح حرفياً، وأنا خبأت هذا القرار في قلبي كورقةٍ رابحة، وبدأت المحادثة مع وليد محاولاً إقناعه كي لا يبدو الأمر وكأنه فُرض فرضاً عليه، وإنّ مشاورته رفع عتب، تابعوا معي هذه المحادثة التي حصلت بتاريخ ٢٥ /١٠ /٢٠٠٨ وبهذا التاريخ يكون قد مضى على

تخرّج حيّان ثمانية أيام، وعلى إعلام وليد بخبر طلب يد هديل أربعة أيام:

- أسعد الله أوقاتك يا وليد، منذ أيام لم أتحادث معك؟

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، لقد كنت منشغلاً ببعض الأمور المُستعجلة.

- أريد أنْ أزف لك بشرى سارة، لقد تخرّج حيّان منذ عدّة أيام من الكلية الحربية، وهو الآن إجازة في عدرا العُمّاليّة يتلقى التهاني والمباركات.

- لقد سمعت بذلك، مباركٌ ما فعل، ومباركٌ تخرّجه.

- كيف سمعت قبلي؟ هل باركت له؟

- أهلي اتصلوا بي، وإلى الآن لم تُتح لي فرصة لأبارك له، وأنا أخشى أنْ يكون منزعجاً مني لأنني طلبت تأجيل خطبته من هديل بعض الوقت.

- خطبة!! يا إلهي ما أجمل هذا الخبر، بادرت بمحادثتك لأصطاد البشارة منك، فإذا بك تصطادني، ثمّ ما قصة التأجيل تلك؟

- لا شيء، فترة قصيرة حتى تصدر التعيينات الوظيفية لخريجيّ المعاهد المتوسطة، على هديل أن ترسو على بر أليس كذلك؟

- لا، ليس كذلك، ثمّ ما دخل الوظيفة بالخطوبة؟ لو كان زواج لقلنا في حديثك بعض المنطق، أما موضوع الخطوبة فلا تأثير له، وليد اخرج من جلبابك وحدثني بصراحةٍ ماذا تنوي؟

- بصراحة أنا لا أريد أن تترك هديل والديّ قبل مجيئي، عليها أن تعتني بهما إلى أن تحين عودتي.

- عودتك!؟ أليست قريبة؟ ها قد مضى على سفرك أربع سنوات، ألم تنتهِ من جامعتك؟

- قريباً أتخرّج، وأُمنح شهادتي الجامعية مع الإجازة التي طال انتظارها، لكن إدارة الجامعة قررت منحي مقعداً من مقاعد الدبلوم والماجستير لتفوقي وتميّزي في جميع المواد، يعني سأقضي الإجازة إلى ما بعد نهاية السنة، وأعود لمتابعة الدراسة.

- وقد تطول فترة دراستك لأنك متفوق وتُمنح مقعداً لتنال الدكتوراه! وبعد ذلك تعود لترى هديل وقد تجعد وجهها وحيّان وقد فقد كلّ أسنانه.

- لا تسخر يا علي، أنا غير موافق وانتهى الموضوع.

- إنْ كان ولا بد من وجود نهايةٍ للموضوع فهو موافقتك يا دارس الشريعة.

- أنا غير موافق، لن يكونا سعيدين، نحن وأنتم بيئتان مختلفتان، والزواج لا يستطيع أنْ يوفق مهما حاول بينهما.

- لا أفهم ما تقصد!؟ كأنك تُلمح إلى شيءٍ غريب؟ سأتظاهر بعدم معرفته، وسأبرهن لك على خطأ نظريتك، يا مُتفتق علماً وشريعة، سأسألك وأجيب عنك، أين عشت في صغرك؟ طبعاً بين بيتنا وبيتكم، ألم يكن لك والدتين؟ نعم أمي وأمك، مع من كنت تلعب؟ أكيد أخي وأختك، لِمَ انبرى أبي للدفاع عن أبيك في قضية الفساد المالي؟ لأنه يعتبره بمثابة الأخ، لِمَ بادر والدك بالتبرع لوالدي بكليته، للسبب الأخوي ذاته ، والسؤال الأخير كيف تمّ ذلك ونحن نحيا في بيئتين مختلفتين؟

القصة ليست قصة بيئتين مختلفتين وإنّما؟؟؟ أكمل يا وليد وإنّما ماذا؟

لن تتكلم!! أخبرتك يوماً ما، إنّ الذين جعلوك تحمل كلّ هذه الأفكار السوداوية وكلّ هذا الكره لعائلة السيد عبد السلام، لا بد أنهم سيحولون قلبك إلى بؤرةِ أحقادٍ تُصب على كلّ من يخالفك الفكر والعقيدة، وأنا أبشّرك بقادمات الأيام وما تحمله هذه القادمات، حتى إنّكَ سترى أباك وأمك وأختك أعداءً لا ميزةً عنا أو عن غيرنا طالما أنهم سيلفظون فكرك الجديد، ومن يتقبّل مثل هذا الفكر العدائي للمشاعر، وللمنطق، وللعقائد، وللإنسانية بكلّ مكوناتها وتكويناتها؟

- حذار يا علي، أنت الآن لا تسبني وإنّما تسب عقيدتي، وهذا هو الخط الأحمر الذي نصحتك كثيراً بعدم الاقتراب منه، لا غفّار لك ولا ديّة، لقد رماك لسانك إلى مرمى السوء والهلاك، واعلم قبل ذلك أنّ أختي لن تكون لأخيك، أو أهلكَ دون ذلك.

- أولاً أنت تهددني بما لا تستطيع فعله، لأنّ أمثال هذا الفكر وحملته لهم مقصات جاهزة في روسيا، ثانياً أختك

لأخي ولا فرق أهلكتَ مع ذلك، أم دون ذلك، وبيننا الأيام، أنا لا أقفل حسابي كالجبناء فلا تقفله أنت، هداك الله يا طويل العمر.

- صدّقْ لن أقفل حسابي لأشمت بك وبأخيك وبأهلك، أما بالنسبة لسخريتك مني بالهداية فاسخر من نفسك ومن قومك.

- إنْ كنت تظنّ اتّباعك لدينٍ يحضّك على كره جيرانك وأهلك هداية!؟ فما ظنك إلا وهم.

- نلتقي يا علي يوم الحساب، يوم لا أسقيك ولا أرزقك مما رزقني الله، وإنْ سردت لي في لحظةٍ واحدة كلّ ذكرياتك العفنة.

- مسكين يا وليد، بالفعل كما يقولون: (الفقير فقير العقل) تقرأ ولا تعرف ما تقرأ، وإنْ عرفت فُسّرَ لك زوراً وبهتاناً، فأخذت هذا الزور وجعلته صدقاً وكلاماً مهماً بالنسبة لذكرياتي فلا تستحقر منها شيئاً، فهي عندي أفضل من اعتقادك الذي تتبع، هي صدقٌ وقع، وألفة لمت، ومحبة ضمت، باقيةٌ ما بقينا، مورثةٌ عبر الدم والإحساس والتربية، أمّا

ما اتبعت فكذبٌ باطنه، مفرقةٌ تفاسيره، حاقدةٌ مضامينه، فاشلةٌ مشاريعه، متنافيةٌ مع الفكر مبادئه، متجنبٌ اتّباعه ومحذورٌ فكره، وإن لم تصدق فابحث عبر شبكة الإنترنت التي بين يديك بسؤالٍ واحد، ماذا تعني الوهابية؟ وإن أردت التخصيص أكثر فابحث عن السؤال ذاته بإضافة (في دولة كذا) لتعرف كم تحارب الدول انتشار معتقداتك، وفكر مذهبك والسلام عليكم ورحمة الله يا شيخ وليد.

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، سترى قول من سيكون في القادمات من الأيام.

هذا ما كان منّا فيما يتعلق بموضوع الخطوبة وقد أوجزته لك في اتصالٍ هاتفي أتذكر يا عم؟

- نعم أذكر، ورداً على موقفه هذا أقمنا حفل الخطوبة بعد أسبوعٍ واحد، ليس لوضعه تحت الأمر الواقع ولكن لأخبره بذلك فإن شاء المجيء فأهلاً وسهلاً وإن لم يشأْ فله أن يبحث عن أهلٍ آخرين! يعترفون عليه ويتعاملون مع أفكاره العفنة، على أنّها نورٌ وحضارة، ولا أظنه ملاقٍ لهذه النوعية إلا في مملكة ظلام آل سعود.

- لقد وصلت قبله، وباركت للخطيبين فرحاً بهذه الخطوة الطبيعية لعلاقة الأسرتين، فما تراه فعل بعد أن تركناه في بيتكم؟

- لم يفعل شيئاً قام متثاقلاً فبارك لأخته وقال لي:

- كنتَ عوناً لعلي عليّ وأكسبته شرطاً مني، أليس غريباً أنْ يجد الأب في رأي غير أولاده صواباً؟ أيأمركم فتطيعونه؟! وأرجوكم فترفضون؟! أما كان من الأفضل لو انتظرتم حتى نتباحث في الأمر معاً؟

- وهل يحتاج الأمر إلى نقاشٍ طويلٍ عريض؟ ألا تعرف حيّان وأدبه الذي يُشبه أدب البنات؟ ألا تعرف أباه صديق عمري؟ وأمه التي ربتك؟ وأخواله الذين طالما أخذوك إلى الصيد والبحر؟ ألا تعرف بيتهم؟ وطبيعة العيش عندهم؟ وقد تربيت كواحدٍ فيهم ومنهم؟ رفضك هذا لم ينبت من هنا، وإنما سقاه الساقون في رمالٍ قاحلة، لا يخرج منها إلا ما كُره وضرّ.

- يبدو أنه قد أوغل صدوركم عليّ! وقد بدأت بذور أفكاره الشيوعية بالظهور! و بمن بدأ؟ بأهلي!؟

- الحكاية ليست حكاية علي، ولا حكاية أفكار شيوعية، الحكاية حكاية حب ومحبة، الحكاية حكاية التزام بالدين والشريعة التي تنص على التسريع بتزويج البنت، الحكاية حكاية عِرف «ابحث عن عريس لابنتك قبل ابنك»، الحكاية حكاية ثقة بجيرانٍ طالما كانوا موضع ثقتنا وثقة عدرا العُمّاليّة بالكامل، ثمّ أين سنجد عريساً كحيّان؟ هل في بالك عريسٌ غيره؟ أم أنك قررت تزويجها لرجلٍ سعودي طاعنٍ في السن وغني؟ خوفي أنهم صبغوك بعاداتهم كما صبغوك بأفكارهم.

- وما بها أفكارهم؟

- ولِمَ تُغاظ بهذا الشكل؟ أليس من الممكن أن نكون مادحين مُعظمين لهذه الأفكار؟ أمْ أنهم كما يقولون «الشوكة تخزّ صاحبها»؟

- لن أرد، تعالي يا هديل، افتحي الحقيبة الكبيرة لقد جلبت لك الكثير من الهدايا.

- وما هي نوعية الهدايا؟ الإنسان يُعرف من هداياه!! قلْ لي ماذا تهدي أقل لك من أنت!

- أنا سأجيب عن هديل يا ابنتي يا ريم، فعدّي على أصابعك، أولاً العطور العنبرية، والمسك الأصلي لجميع أفراد العائلة، ثانياً جلّابيات نسائية، وألبسة صلاة، وأحجبة للرأس بألوان مختلفة، ثالثاً عدادات تكبير واستغفار، ثمّ طلب من أمه تحويل مليون ليرة لاسمها! أنا لن أتكلم عن الهدية، ولا تعنيني، ولا فرق عندي إنْ أهداها بمقدار ليرة أو ملايين، لكنني أسفت للفكر الذي فكر به بإهداء عروس ما أهداها! أنا لا أقطع عن ابنتي ما ذكرت، ولكن أن يأتي بها من مملكة العتمة! هي تلك كارثة التفكير! وإنه لم يأتِ بهدية للعريس أو لأي إنسان في البناية! فهذا هو الانغلاق وربما التطرّف! وهذا أكثر شيءٍ حزّ في خاطري.

- وكيف سارت الأمور بعد ذلك؟

- من الطبيعي يا علي، أنّه حوّل بيتنا إلى تكية، حاول مرّةً أن يأتي برفاقٍ له قال: إنهم رفاق الجامعة فرفضت، ثمّ انشغل بكَ وبحكايته مع ريم.

- أنا سمعت من علي القسم الأكبر من الحكاية، لكن حلقة ما ظلّت مفقودة بينكم وبين أهلي! فما هي؟

- في الحقيقة، أحبّكِ وليد كما لم تُحب امرأةٌ أخرى، وقد أعلن أمامنا أنه سيلغي سفره إلى السعودية! وسيلغي مشروعه بإكمال دراسته حتى الماجستير والدكتوراه إذا ما وافقت على الزواج به بعد الأسلمة! أغرى أباكِ كثيراً لكنه رفض! فما كان منه إلا أن اشترى الصيدلية المُستأجرة منذ عشرين عاماً لتصبح باسمك! ثمّ وضب حقيبته وسافر، لم يستطع أحد تفسير هذا الفعل إلا بالمعدن الأصيل! سافر وبقيت الصيدلية لك! سرٌ مُبهم ترك عندي بعض الأمل بعودته إليّ وإلى تربيته الحقيقية، وأرضيته الطيبة.

- هل نكمل اليوم أم نؤجل؟ الجواب للمرضى؟

- بل نكمل قليلاً يا علي؟

- في إجازته، جلسنا معاً كما كنا نجلس صغاراً في غرفته أو في غرفتي، نتناقش ونتحاور، ولو طالت إجازته لتغيرت أشياء كثيرة، لكنه قطع إجازته قاصداً متقصداً بحجة ريم ومعاناته مع الحب المستحيل! وأغلب ظني أنه هرب من تأثير ذكرياته، ومن تأثير الوجوه السمحة، والقلوب المحبة الرحيمة، هرب

ليُخمدَ صراع الطبائع بين الطباع التي تربى عليها، وتلك التي زُرعت فيه غصباً بحجة العلم والتنوير والهداية!

طلبت منه تطوير المحادثة فيما بيننا، لتصبح موثقة بالصور، أو لو شاء فلتكن بالبث المباشر عبر الكاميرا المثبتة، وعلمته التعامل مع كلّ المواقع التي تبث المحادثة بالصوت والصورة بشكلٍ مباشر، وافق ضمنياً، لكنه أراد أنْ يستشير مشايخه! ويعرف حلالها من حرامها! وربما أراد إصدار فتوى خاصة بهذا الموضوع من مجلس الإفتاء الوهابي الأعلى في مملكة آل سعود، وطبعاً موافقة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حاولت إفهامه أنّها خطوة خاصة ولا دخل لمن عدَّ بذلك، ولكن للأسف فأول قانونٍ حياتي تطبّع به أن للمشايخ حقاً في التحكم بخصوصيات وعموميات الفرد! لأنهم خلفاء الله على الأرض وولاة أمره!!

مع بداية السنة الجديدة عام ٢٠١٠ كان سفرنا المتقارب، سبقني بيومين، قد يكونا بالنسبة لأيّ أحدٍ عبارةٌ عن ٤٨ ساعة، لكنهما بالنسبة لي تلخيصٌ كاملٌ لمستقبلٍ فيه من الوضوح ما لا يحتاج إلى وصايا، وفيه من الغموض ما لا يتوقع

حكيم حدوثه! ثماني وأربعون ساعة قسمّتها بالتساوي ما بين النوم، والطوابق الأربع في بنايتنا، كلّ حصةٍ أوجدت لها في قلبي مقراً، ثبتت فيها ذكرى لا تمحى، ولا بأس إذا ما ذكرتها في سيرتي، بدءاً من الطابق الأول، حيث كان جارنا السيد نزار وعائلته وأولاده الثلاثة، كانت هوايته في لقائي أنْ يستمع وأنا أشرح له! عن فضاءات موسكو، عن ثلجها، عن ناسها، عن جامعاتها العريقة، عن متاحفها الكثيرة، عن عظمة متحف الأرميتاج، عن محتوياته التي تلخص تاريخاً عميقاً من الحضارة الروسية، أذناه معي دائماً، وعيناه وعيون أطفاله على شاشة كاميرا الديجيتال، التي وثقتُ بها رحلتي الدراسية الكاملة، غريبةٌ أسئلة أطفاله، التي تقطع حديثي بطريقةٍ طفوليّة، ماذا يعني قيصر؟ لِمَ تُسمَّى ساحة القصر بالساحة الحمراء؟ ماذا تعني بأيام الاتحاد السوفييتي؟ لِمَ أغلب صورك شتائية؟ كيف وجدت وقتاً لتدرس به؟ ألم يُلهك الثلج واللعب بالثلج؟ لقد زرع كلامي في بال السيد نزار حلماً اسمه (روسيا) وأعتقد أنه ادخر مالاً لهذا الموضوع، فقد أخبرني بأنه سيكون في ضيافتي عندما تكتمل التجهيزات المادية، بما سيناله من حصة الموسم

الزراعي في قريته، وما سيجمعه من الجمعيات المقامة على راتبه وراتب زوجه، كانت وصيته لي بأن أجمع عن روسيا كلّ المعلومات الجماليّة لتكون جاهزة عند سفره، وحضوره على الأرض الروسية، إحساسه كان رائعاً، هذا الرجل لم يكن يعمل في مكانه المناسب! معلوماته تؤهله للعمل بالمؤسسات الثقافية! يعرف أشياء كثيرة عن الآداب العالمية، وعن الموسيقا والرسم، عن المسارح العالمية، والفرق المسرحية الراقية، يستطيع أن يُميّز أغلب لوحات فناني الرسم في سورية! وربما كان يحفظ الكثير من أغاني الفلكلور السوري القديم.

أمّا الطابق الثاني، فكان معكم ومع عائلتكم يا سيد أبا الوليد، أنا متأكدٌ أنكَ تذكرها جيداً بذاكرتك القوية! تذكر كيف أقنعاك (زوجك وابنتك) بصنع المتّة؟ وكيف عرفنا جميعاً أنّ هناك أمراً لا يُقال بوجودك؟ فانسحبت صارخاً كلّ دقيقة: ألم تنتهوا؟ هل أدخل؟ لقد بردت المتّة يا جماعة! سأعدّ إلى العشرة، أحبت زوجك وابنتك أنْ أبادر إلى إقناع وليد بالحسنى، طبعاً بالزواج السريع لهديل وحيّان، وقد وعدتهم، ليس لأن الأمر يتعلق بأخي! بل لأنه تعبيرٌ رائعٌ للحياة السوريّة المنسجمة إلى

أبعد ما يكون الانسجام بين مكونات المجتمع السوري، قمة الحضارة في أيّ بلد، ما فعلته ابنتك بمطالبتها الحثيثة للحصول على حقوقها! وما فعلته زوجك بالدفاع المستميت عن حق ابنتها! أمّا أنت فبعد أنْ أنهيا حديثهما وانصرفا، قمت بفتح الحديث الشاغل لبالك ولوجدانك، حديث وليد، فقد بادرتني بجملةٍ أثرت في وجداني، لحدس أحسست معه بمسؤوليةٍ كبرى وقعت على عاتقي، قلت يومها:

- علي... (الآباء يأكلون الحصرم والأولاد يضرسون) لقد أخطأنا جميعنا يا علي، أقصد أنا وأبوك والسيدان نزار وعبد السلام، وحتى النساء، بإرسال وليد إلى السعودية، ولماذا ليتعلم فكرهم!! وأيّ فكرٍ هذا الذي سيأتي من أناسٍ لم يحلوا أنفسهم من عقدة (بول الجمل)؟ أخطأنا يا علي، أخطأنا بموافقتنا على سقوط وليد في البئر المظلم، أخطأنا بوقوفنا أعواماً نستطلع أحواله وهو يغرق! دون أن يمدّ أحدنا يده لانتشاله، أمّا اليوم وبعد أن أفقنا على خطئنا برؤية وليد على ذاك المظهر، وذاك الفكر، فلم يسعنا أن نعمل شيئاً، لقد طمى الخطب، وليس باليد حيلة، غرِقَ الولدُ وليس لإنقاذه أيّ أملٍ، إلا إذا ما توكلنا

على الله وعلى قدرتك في سحبه وانتشاله، أنت الوحيد القادر على فعل ذلك، وليد يحبك أكثر من كلّ الدنيا، أكثر مني ومن أمه ومن أخته، أنت كلّ شيءٍ لديه، أنا أعرف ذلك وأعرف أيضاً أنك الوحيد القادر على تصحيح ما فعلته أيدينا ، وهذه أمانتي عندك، مصيرُ أخيك وليد بين يديك، وكلّي ثقةٌ بك وبقدرتك على تنفيذ طلبي وبمحبتك لوليد، فهل تقبل مساعدتنا بإعادة وليد إلى سابق عهده بالحياة؟ إلى ما كان عليه من الفكر المُنير؟ إلى ما كان عليه من الطبيعة السوريّة المحبة الطيبة الرائعة؟ أرجوك لا تخذلني، وارحم شيبتي وأبوتي، أنت ولدي كما هو وأمون عليك، يا ولدي يا علي.

- ما قلته صحيح وكأنه مسجلٌ على شريط! ولكم كبرت في عيني حين أجبتني:

- أعليّ أنْ أنتظر طلبك وأنا أعتبر نفسي ولداً لكم وأعتبركم أهلاً لا جيران؟ لقد فكرت بهذا الأمر من أول يوم سافر به إلى المهلكة السعودية، من أولِ لحظة أحسست بالرمال المتحركة وهي تشدّه إلى الأسفل، المعركة بيني وبين خاطفي فكره من أول محادثة، والحق أقول إنها معركةٌ صعبة وبمجرد صمودي

فيها إلى هذه اللحظة انتصارٌ عظيم! وأعتقد أنهم ما كانوا ليمددوا سنين دراسته لو شعروا بانتصارهم الكامل، لقد أفزعهم صمودي، توقعوا كلّ شيء، إلا أن يطول صبري بوجه مئات العوامل التي تصطف إلى جانبهم، أنا كنت أحادثه فقط مقابل بحرٍ من المحاضرات اليومية، مقابل بحرٍ من المال، مقابل بحرٍ من الإغراءات المستقبلية، مقابل بحرٍ من الخيالات المدسوسة في واقعٍ سام، وأكثر ما أغاظهم أنني كنت مقيداً ولا أستطيع محادثته إن لم يرغب هو بذلك، ومع ذلك حققت لمعاركهم نتيجةً «الفشل الذريع»! لأنّ بحورهم وسهامهم لم تصل اللب، وبقيت في القشرة الخارجية للدماغ وللقلب، كان هدفهم الرئيس إلغاء اسم سورية وأكثر من ذلك مسح هذا الاسم بكلّ مكوناته البشرية والطبيعية والمجتمعية من ذاكرته أولاً! و من إحساسه ثانياً! بالملخص أرادوا تحويله من وليد السوري الذي يتعبّد بالدين الإسلامي البسيط الرحيم دين محمد بن عبد الله (ص) ويتعايش مع طبيعة بلده كمكونٍ مُتأصلٍ لبلده مثل الشجر، مثل الحجر، مثل الغيم، مثل الحب، مثل الأخوة، إلى وليد السعودي الوهابي التكفيري، العابس،

المتجهم، ويعيش كعنصرٍ مُزيف! ولا فرق عندهم أنْ يكون مثل حبات الرمال الكثيفة أو حبات البلح الكثيرة المهم أن يدين بالولاء للملك وللعائلة الحاكمة ولمشايخ الفتاوى الكاذبة! صابغي الدين، مُحتقريّ الإنسانية، عبدة المال، وعبيد التسلط الغربي الأمريكي، هناك مثل معروفٌ عندهم وعند العرب جميعاً (خوف السعودي من اليمني وعقدته من السوري) لذلك كان سعيهم أبداً (إرهاب العمال اليمنيين البسطاء ومداهاة السوريين بأساليب حقيرة تُشبههم ظاهرياً وباطنياً) وهيهات هيهات أنْ نسمح للكلاب بنهش أيّ منا ونحن ناظرون منتظرون، أن يأتينا الدور، نحن بلاد الله حيث أقسم بالتين والزيتون، نحن حبّ الله حيث بارك لنا ونحن طريق رسالاته إلى البشرية، نحن مهد الحضارة والنور ومن لا يصدق فليسأل بولس الرسول: كيف اهتدى على يد حنانيا الدمشقي؟ نحن ثقة نبيه محمد (ص) (لا تزال الملائكة باسطةً أيديها على الشام) (ألا وأنّ الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام) نحن السوريين الذين لا تستطيع طبيعةٌ في العالم دمغ طبيعتنا أو صهرها أو مزجها غصباً أو إخفاءها أو التغطية عليها، نحن

رجال الله على أرضه، العاملون بدينه، القائمون على أمره، الحافظون لصراطه إلى أنْ يأتي الله بفرجه الكريم العظيم.

أمّا الطابق الثالث، طابقنا الّذي أحبْ، أتذكر يا أبي؟ أم إنّ ذاكرتك تراجعت عن ذاكرة صاحبك؟ أتذكر آخر انفرادية لك بحيّان أو بي؟ وكيف كنت تنتظر انشغال أمي بأمور المطبخ لتختلس من الوقت قليله؟ فتوصينا وتذكرنا بوصاياك القديمة إنّما المؤمنون إخوة... ﴿**إنّما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون**﴾ (الحجرات١٠) أتذكر كم كنت تستفيض بشرح هذه الآية؟ وتضرب لنا في مرةٍ مثلاً عن أهل بنايتنا؟ وتخص بالذكر عائلة أبي الوليد؟ وتقول لنا:

- نحن وعائلة أبي الوليد أخوة، حتى حجارة طابقنا على أخوةٍ مع حجارة طابقهم! فليكن هذان الطابقان أنموذجاً لكما في حياتكما بشراً وحجراً ومعاملةً.

وقلت لي في آخر جلسة قضيتها معك:

- أنت كبير العائلة من بعدي، يعني أنت كبير العائلتين من بعدي وبعد أبي الوليد، فلتتعلم من هذه اللحظة، كيف تجمع

وتلم كالأم؟ وكيف تنظر وتراقب كالأب؟ وكيف تحرص وتساعد كالأخ؟ وكيف تعمل لخدمة هذين الطابقين سراً وعلانية كالأخت؟ وكيف تنصح كالجار؟ وكيف تحمي كباب الحديد الخارجي؟ وكيف تُدخل الحب والطمأنينة إلى قلوب الجميع؟ كما تُدخل النوافذُ النورَ والدفء، الأمانة برسم ضميرك، لا ينفك وزرها عنك، فكن عند حسن ظني، واحرص كلّ الحرص على أمك وأخيك، وخطيبته وأهلها، وبالأخص وليد، وليد الّذي كنت أنا سبباً مباشراً في الضغط على أبيه لإرساله إلى مستقبلٍ مجهولٍ! دربه ورود ورياحين، وأرضه عقاربٌ وثعابين، خلصه لأتخلص من وزر ما ارتكبته مع بقية سكان البناية، خلصه ولك أجر يُشابه أجرمن خلّص كلّ البشر من بين أيدي الحاقدين المبغضين الظالمين.

أتذكر بما أجبتك؟ أتذكر أنني قلت لك جملتين لا غير؟

- لو كان بيني وبين الموت يومٌ واحد ما وصلني إلا ورغبتكم جميعاً منفذة، لكم الطاعة ودعاء القلب بالمغفرة والآخرة الحسنة.

أمّا الطابق الأخير، طابقكم يا ريم ففيه الحكاية، وملخصه، وعنده خاتمة الأمور! كان لي فيه جلستان من جلسات الوصايا، الأولى مع أمك التي أوصتني باكيةً فقالت:

- أنت ولدي، وتذكر أنني ما عاملتك إلا كتلك المعاملة التي تليق بالأولاد الحقيقيين!؟ ولو أن الله وهب لي ولداً ما كان عندي بأعز منك، ومن حقي عليك أن أوصيك بريم، أختك الصغرى، التي ما افتقدت يوماً الأخوة بوجودك، ووجود أخيك وهديل ووليد هداه الله، وأنت تعرف ما الذي أربكنا به وليد؟! ريم لا تعرف شيئاً مما حدث ولذلك أنا خائفة عليها منه، وخاصة بعد أن اشترى الصيدلية المستأجرة من صاحبها ووهبها لريم بلا قيدٍ أو شرط! علّمنا التاريخ في هذه البلاد أنْ نحذر المتطرفين، الغرباء عن طبيعة هذه الحياة، فإن حدث لا سمح الله لي ولأبيها أيّ مكروه فهي في عهدتك وأمانتك إلى يوم يُبعثون، لها الحرية بمن تختار إلا هذه النوعية، رجاءً لا تتركها وحدها، كن لها ولفكرها ولإيمانها العون واليد التي تستند عليها، كن لها كما نظنك جميعاً، الأخ الّذي لم أستطع ولادته، أنا أحببتك كولدٍ لي قبل أنْ أتزوج وقبل أنْ أعرف من

تكون؟ وابن من تكون؟ وقبل أنْ يجمعنا القدر في بنايةٍ واحدة وطابقين متتاليين، فكن مكملاً لهذا القدر الرائع الذي جمع ووفق بين النيات الطيبة لأهالي هذه البناية، علي... يقول المسيح (ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراؤون لأنكم تجاهلتم أثقل ما في الشريعة، أي العدل والرحمة والأمانة). كان الله في عونك إذ حمّلتك أمانة ما كان يجب أنْ تكون لك، ولكنني وجدتك أميناً بكلّ ما يتعلق بحياتك، وبعلاقاتك الاجتماعية، بدءاً من البيت الذي تربيت به، وانتهاءً بعابري السبيل ولأنك أمينٌ مع الآخرين، فأنا أؤمنك على ما هو عزيزٌ عليّ وكما يقول السيد المسيح في الأمانة (كن أميناً في القليل فأقيمك على الكثير) إلهنا يا علي، إله أمانة لا جُورَ فيه، وأنا أمنتك على ما هو أغلى من المال والعمر والروح، فصنْ هذه الأمانة أيها الأمين.

أمّا والدكِ العم الأستاذ عبد السلام، فأنا أعرف ذاكرته مذ كنت طالبه، آه يا أستاذ، يتمنى الطالب أنْ يكبر ليرتاح من هم الدرس والمدرسة، فإذا ما كبر وتحققت أمنيته أدرك وبعد فوات الوقت، أنّ أيام دراسته أحلى ما عاشه، وما سيعيشه، وأحلى من كلّ أحلام المرء التي تطير من بين يديه عندما يستيقظ، أتعرف

يا أستاذ؟ أنت أول من زرع في بالي فكرة السفر إلى روسيا! أتذكر عندما قلت: لوالدي في إحدى المحال التجارية (فرخ البط عوّام)؟ أخذتني جملتك هذه إلى عالم التقمص بشخصية والدي، وأصبحت دائم التفكير كيف سأكون مثله حتى أسافر إلى روسيا؟ وكلّ يوم أردد: أنا سأصبح مهندساً إذاً أنا سأسافر إلى روسيا، والحمد لله سافرت وعدت، ثمّ سافرت وعدت، وفي كلّ مرة أعود وكأنني إنسانٌ آخر! عقلي يتسع علما ونوراً، وقلبي يفيض حباً بكم وشوقاً إليكم، إلى أنْ وصلت إلى سفري الأخير، لِمَ حمّلني الجميع أماناته؟ وكأنكم تعرفون إنه الأخير!؟ أو إنّه السفر الّذي سينتهي بما لم تنتهِ به أسفاري السابقة!؟ حتى أنا لم أفكر في ذلك إلى أنْ وقعت أحداث مدينتنا الحبيبة «عدرا العُمّاليّة»! كيف ألهمكم الله أنْ توصوني؟ ولِمَ أنا؟ أي شعورٍ أتاكم بأني سأكون بينكم يوماً ما كهذا اليوم؟ لِمَ لم توصوا حيّان أو وليد؟ أو السيد حسن حسن؟! فأنا أعرف حبّ الجميع له رغم زياراته القليلة والمختصرة، يا لهذه الغرائب التي لم أفكر بها مطلقاً! حدث ذات يوم وأنا أشاهد مقاطع الفيديو على اليوتيوب أنْ تذكرت وصيتك الأخيرة لي:

- علي... ربما تعود ذات يوم فلا ترانا كما نحن، ولا ترى مدينتنا كما تراها الآن، ولا ترى ساحتنا الجميلة، ولا ترى بنايتنا الطيبة الحنونة، فإذا حضرت ما أصفه لك فتأكد أنّ الحرب قد وصلت إليها، لا تستغرب، ولا تسأل نفسك: أيّ حرب؟ أو ماذا حدث للأستاذ عبد السلام؟ الاضطرابات تحدث في تونس وليبيا وهو يتكلم عن الحرب في عدرا العُمّاليّة!؟ الحرب أُشعلت لتكون هنا، لتستقر هنا، ليكون حدها هنا، هنا المقصد الأساسي، والعين رصدتْ لتحط أنظارها هنا، وإنّ غداً لناظره قريب، فإن كنت ولم نكن فصغيرتي لدّيك أمانة، أنتَ أقرب شخص لي ولأمها ولها، يعني أنت القاسم المشترك بيننا، أرعبتني فكرة وليد بالتقدم لها! لم أتصور أن يحدث ذلك أبداً، تخيّل أنْ أوافق عليه عريساً، أصلاً مجرد نقل طلبه إلى أسماعها جريمة، أنا أعطي ابنتي لرجلٍ كلّ شيءٍ فيه متطرف!؟ شكل وجهه باللحية الطويلة والشارب المحلوق! لباسه الذي لم أرّ شبيهاً له إلا لباس طالبان في أفغانستان! أفكاره المقلوبة رأساً على عقب! يرفض الجلوس مع أمك و أم ريم من باب الحرام والمحرمات! متى ألفنا هذا النمط المغلق من التفكير؟ ليس

المخيف أنه فعل ذلك، المخيف أنّه ما كان هكذا يوماً وصار! والحلقة التي بين ما كان عليه وما صار إليه، هي الحلقة المخيفة والمرعبة في الأمر، الموت مُرّ، وسأقول لك الحقيقة، فقد اجتمع بي مرة، وأعلن بكلّ صراحة أنّه على جاهزية عالية بأن يترك دراسته ليعيش هنا بما ادخره من مالٍ في حال وافقت ريم على الزواج منه، شاب مثل وليد، بعقلٍ انقلابي مثل عقله، يُمثل بالنسبة لي كارثة، وقد تبقى ريم في باله حين يعود، وكلّ خوفي إذا ما كانت وحيدة، فهل من حامٍ لها أجده في ضميرك ووجدانك؟ والله الذي أرسل نبينا ونبيكم بالحق، ما وجدت أجدر منك بأمانتي الصعبة، وما اشترى وليد الصيدلة إلا لغايةٍ في نفسه وأنت أدرى به، فاحمِ ابنتي من براثن غاياته، فما بدرَ يوماً من هذه الأشكال خير، ويبقى الحذر واجباً علينا في معاملتنا معهم، وإلا أكلنا فكرهم الذي لا يرحم ولا يفهم، أموافقٌ أنت على كلامي وأمانتي؟

تذكرت وصيتك في هذه اللحظة يا عم، مرّت وكأني أراك تعيدها لي على شاشة الكمبيوتر، فانتفض قلبي كمن أضاع محفظته فجأةً وبها كلّ أوراقه الشخصية، وقفت

كالمصعوق أردد الأمانة... الأمانة، ارتبكت كثيراً، تجمدّ الدمُ في عروقي، وخمد عقلي عن التفكير، مع من أتكلم؟ وكيف سأصل إليكم جميعاً؟ وما أفعل بموعد تقديم شهادة الدكتوراه؟ وما السبيل الأنجع لفك الحصار عن نفسي؟ وعن تعبي الذي استمر لسنواتٍ طوّال؟ هرمتُ في لحظة! فلم تعد فرائصي قادرةً على حملي، ولم تعد ذاكرتي قادرةً على تذكر إيّ رقم لأتصل به أو حتى على تذكر وسيلة ما للاتصال كالهاتف الثابت والمحمول، دارت بي الدنيا أو دارت بخيالي وطيفي، بينما بقي جسدي مُلصقاً بالكرسي، عدرا... عدرا العُمّاليّة!!؟ بكيت، بكيت كثيراً، ولم أصحُ من بكائي إلا على أخبارٍ هاتفية متتالية منكم جميعاً! وكأنكم تعمدتم تأجيج ناري بحطب أخباركم التي زادت من قهري، وبالتالي من بكائي العميق.

يكفي اليوم، فأنا من يحتاج إلى الراحة، ربما أكمل ما تبقى من الحكاية غداً أو بعد غد، حساباتي ليست دقيقة، شوشتني ذكريات أماناتكم، اسمحوا لي أن أغادر إلى غرفتي، وإذا سمحتِ يا هديل فأنا أحتاج إلى كوبٍ كبيرٍ من القهوة، تُؤسفني

هذه العادة التي اعتدتها في روسيا، ولكنني كنت مضطراً لها بحكم الدراسة الليلية الطويلة.

قرعت باب غرفتي شبه المفتوح بهدوء، نظرت حزينةً إلى وجهي الذي أحاول إخفاءه بكفين يمسحان الدموع.

- أتبكي يا علي؟ على من؟ على فقيدينا؟ أم على حالتنا؟

- على كلّ شيء، أنا فقدت أخاً وصديقاً بمثابة الأخ، فقدت أحلاماً كبيرة كنت قد تركتها واقعاً جميلاً، وعدت لأراها كابوساً مرعباً! أفلا أبكي؟ لو كنت صخراً لانصدعت، ناوليني هذا الكوب. سلمت يداك، فقد جفّ قلبي، وجاء في وقته.

- علي، أحقيقةٌ ما تحاول إيصاله لنا بأن وليد مات على غير كفرٍ أو إجرام؟ أم تُراك تدافع عن ذكرياتك وتواسي مُصابنا؟ كوننا أصبحنا على قرابةٍ بعد الصداقة الكبيرة بدفاعك المستميت عن وليد؟

- أنا أقول الحق، لأن الحق يجب أنْ يُقال، أنا أقول الحق، لأدافع عن قناعتي وقناعة أهلك وأهلي وجيراننا، بأن الواقع الذي كنا نحياه في عدرا العُمّاليّة، والواقع الذي يلمنا الآن في

هذا البيت، وعلى الأخص اجتماع حبة المساء، هو الواقع الصحيح الذي لم يقدر أحد على مرّ التاريخ قتله أو دفنه تحت أنقاض أحقاده، أدافع عن سوريّةِ أختك التي انفجرت لتنفضَ عنها ركاماً هائلاً من الكذب، والدجل، والمال الحرام، والأغشية الدينية المتورمة، من التزييف والتحويل والتحوير لكتاب الله، وسنة نبيه، وفقه أئمة الإسلام وعلمائه، أنا أدافع عن جنينك، لا أريد أنْ يلد وعلى عينيه غشاوة، تخدع له مجال الرؤية، فيظنّ أن شمسنا وقمرنا لا يظهران معاً لأنهما متخاصمان! ولا أريده أنْ يُلبس عقله فكرةً عن موت أبيه وخاله وكأنهما ماتا متعاديين فأطلق كلّ واحدٍ منهما على الثاني النار كما في اللعبة الأمريكية الإجرامية (العد إلى العشرة مع السير بالاتجاه المعاكس وعند كلمة عشرة يستدير كلّ منهما ليقتل الثاني)!

يا هديل (إنّ حربنا ليست حرب منْ يقتل منْ؟ وإنّما هي حرب البقاء لمن؟ للحقيقة أم للتزييف؟)، (حرب أيهما حق؟ الصدق أم الكذب؟) (حرب الحياة، أكانت صحيحةٌ كما عشناها أم كانت خاطئة؟) (حرب الدين، أكان حلالاً ما تبعناه

أم كان حراماً؟)، (حرب إرادة، أتصمد لتبقى كما كنا أم تخضع لكل ما هو معاكس؟)، (حرب الحضارة العريقة، المتوارثة، الممتدة لآلاف السنين، ضد حضارات الرمل، والكرتون، واللحى الطويلة، والشارب المحلوق، الحضارة المتظاهرة بالدين نهاراً والمتسكعة بين النوادي الليلية ليلاً، الحضارة التي تعتبر المرأة مجرد متعة، والفقير مجرد عبد، والغريب عن البلد والدين مجرد شاةٍ قابلةٍ للذبح)، (حرب حيّان ووليد معاً في صفٍ واحد، ضد الرواسب الموجودة في كليهما، وضد كلّ من يحاول زرع أفكاره وعقائده المتراجعة، تراجع بول الجمل، لا كما يُصور العُملاء ومتتبعو هذا الفكر الظلامي الحاقد على البشرية جمعاء، على أنها حرب بين الأخوين على مصلحةٍ ما، سواء كانت هذه المصلحة صغيرة أم كبيرة).

آه يا هديل... كم تكلمت؟ وكم عليّ أنْ أتكلم؟ أنا أحارب الآن بالصوت، بالكلام، بما عرفته، بما هو يقينٌ عندي، يقينٌ لو تدرين حجمه! إنه أكبر من هذه الحرب برُمَّتها، يقينٌ يقول لي في كلّ ثانية: لا يأس لا قنوط، الحب في بلدي أقوى من كلّ السيوف، وأقوى من كلّ الوحوش، وأقوى من كلّ الأخلاق

المتمردة على ذاتها، بحكم الانجرار خلف الضباع الغازية، وخوفاً من سكاكين الذبح المقروء عليها اسم الله زوراً وبهتاناً.

صباحٌ جميل والأجمل منه وجه أمي المنتظرة جالسةً على كرسي يتغير موقعه دائماً بتغير وجهة حرارة الشمس، أُقبّل رأسها، وأستند على كتفيها برفقٍ، ثمّ أعبثُ بشعرها كيفما شاءت أصابعي.

- من ينتظر الحلو؟

- ينتظرك أنت، أريد أنْ أخرج هذا الصباح معك فهل تمانع؟

- أمانع!!؟ أمانع يا أمي!؟ يا سكر هذا المشوار، منذ متى لم تمشي معي وأنتِ شابكة يديك في يدي؟ فيفتخر كلانا بصورتنا التي نبدو فيها وكأننا أخوة، هيّا يا أمي هيا لننطلق...

كنت أسمع صوتها، فأنتشي بنغمته، وأنسى ما قالته، وكانت تسمع صوتي، فتتخيله صوت حيّان، فتحزن ويتساقط دمعها صامتاً، وتنسى ما قلته، إلى أنْ أصبحنا بطريق العودة وكان سؤالها الغريب:

- متى وصلك نبأ حيّان؟ أتصدق وفاته حتى لو أخبرناك بأنفسنا؟ ألم تسأل كيف حدث ذلك؟ ولماذا كان هناك في هذا التوقيت؟

- أمي، كلّ امرأةٍ في الدنيا فقدت ابنها، تحاول جاهدةً ألا تصدق وإنْ شاهدت ولمست جثمانه مشاهدة العين ولمس اليد، العقل يُصدق، لكن جزع القلب في هذه اللحظات أقوى من التفكير في أيّ مسألة! الجزع يشوش على الإدراك، أنت معذورة فأنت أكثرنا جزعاً، أيامٌ وتذهب سكرة الجزع ليأخذ التفكير والإدراك موقعهما من العقل، ليرحمه الله.

- أنت لا تفهم عليّ! ولم أجد أحداً يفهم! تظنون أنّ كلامي نابعٌ عن كوني أمه؟ أبداً يا ولدي، أبداً يا علي، أنا أم واعية، ومتعلمة، وأعرف ما أقول، هل ما رأيناه هو الدلالة العظمى على حدوث الموت؟ هل مجرد الاتصال من أيّ يكون يؤكد الموت ويحتمه؟ أليس من استخفاف بالعقل تصديق ذلك؟ ولدي مات، وأنا مقتنعة، ولا أعاند القضاء والقدر، ولكن ما هكذا يُقرر الموت! ولا بخبرٍ تفتح خيمة العزاء! وكان الله في

العون، ما في قلبي ليس في قلوبكم، ولن تفهموا ما يعنيه لساني عدا الكلمات.

ما هذه الصباحات؟ في كلّ صباح يستلمني فردٌ من العائلة! أخرج لأفرّغ بعض الشحنات المتولدة من اجتماع حبة المساء، لأفكر بالذي حدث كيف؟ ولماذا؟ وماذا بعد؟ فأعود مشحوناً بتساؤلاتٍ مُحيّرة! مرعبة! وكلّ تفكيري محصورٌ بكلامهم الصباحي! عليّ أن أنهي هذه الحكاية قبل أنْ تأتي على كلّ ملكاتي الفكرية، ولذلك دخلت بعد الفطور مباشرة إلى الغرفة، أنسق ما سأعرضه في الاجتماع المسائي من المحادثات، إلى الصور، إلى مقاطع الفيديو، وتسجيلات المحادثات المرئية بالصوت والصورة.

- هل تجتمعون بانتظار كنز المعلومات الذي بحوزتي؟ أم بحكم المصادفة والعادة المسائية؟

- اجتمعنا، لأن اجتماعنا خير كيفما كان، ولأيّ سببٍ كان، فإن شئت فنحن جاهزون وإن لم تشأ فلم نخسر شيئاً.

- بل أشاء فاسمعوا: لا أعرف إنْ وقت الاجتماع يسمح بقول ما لدّي ولكنه على الأرجح أهم ما لدّي، بعد أنْ ودعتكم

جميعاً، وانطلقت إلى روسيا الحبيبة، لم يكن في واردي هذا الغياب الطويل، شاءت المصادفات أنْ تجتمع لتمنعني من المجيء، فتارة تتوقف امتحانات الدبلوم بسبب موجة البرد القارس، وتارةً أخرى يتغيب المشرف على رسالتي لسبب طارئ، وأسبابٍ كثيرة شاءها الله فكان ما كان من غيابي هذه المدة، وعلى كلِّ حال فقد بدأت أنا أولاً بالاتصال مع وليد الذي بدا لي كأنه ينتظر قراراً يسمح له بالتواصل معي بالصوت والصورة، طبعاً هو لم يعلن انتظاره صراحةً إلا أنني قادرٌ على اكتشاف ما يضمره وإن كان على بعد آلاف الكيلومترات! من كلمة واحدة قد يكتبها أثناء محادثتنا الثنائية، أنا بدوري لاحظت رغبة المراقبين بتسريع هذه الخطوة ولكنني لم أعرف نيتهم في ذلك الوقت، المهم أنه وبعد أسبوعٍ واحد أصبحنا نتواصل وكأننا جالسان معاً نحتسي القهوة.

أحاديثي كلّها كانت تدور عن الحب، والسلام، والذكريات، والدراسة، بينما كانت أحاديثه تدور على نفسها لتصب في مصبٍ واحد (الدين، والآخرة، والإشراف السعودي على أركان الإسلام، ويا بارك الله في خادم الحرمين الشريفين،

الخادم الذي أعيتني صوره المُرسلة) ولما اعترضت على إرسالياته لصور هذا العجوز الخرف المهتز، اعتكف عن الصور، وبدأ بإرسال مقاطع الفيديو التي تصور الخادم يرقص بالسيف رقصته الجرباء، أو يُلقي خطابه جالساً مُتأتئاً، وفي أحسن أحوال مقاطعه المُرسلة كانت عبارة عن دقائق للشيخ الفلاني، يتباكى حزناً على مصير الناس من غضب الله، أو للشيخ العلاني، يتفاخر بالنسب السعودي العريق حيث تصل شجرتهم إلى أقوام بني قريظة! الذين أسلموا على حد السيف كما يُقال، ومنهم من عاد إلى محاربة الإسلام بعد وفاة سيدنا محمد(ص).

صبرت كثيراً إلى أنْ نال الصبر مني، فقلت في نفسي: لن يرتدع هذا الولد عن إفزاعي بهذه الصور إلا إذا أرسلت له بعض الصور، والمقاطع، التي التقطتها بكاميرتي الخاصة، ولحياتي الاجتماعية التي أحياها، فأرسلت له صوراً من داخل القاعة الدراسية، وأخرى من الرحلات العلمية، وربما أرسلت له الكثير من صوري مع الرفاق داخل الجامعة، أو مع المعارف من خارج الجامعة، ولما عرفت أنّ صوري أصابت الهدف، وأوصلته إلى حالة الاحتراق، بدأت بإرسال مقاطع الفيديو

التي كنت أشرف على ترجمتها نكايةً به وبالمراقبين من خلفه، ولكم واحدةً من المحادثات المصورة والمسجلة مرئياً:

- السلام عليكم يا وليد.

- أهلاً، ما هذه المقاطع التي ترسلها؟ أنت تحيا هكذا!!؟

- وليد ما بك؟ ﴿**وإذا حيّيتم بتحيةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها إنّ الله كان على كلّ شيءٍ حسيباً**﴾ (النساء٨٦).

- ألم ترَ في نفسك وأنت ترسل إليّ المقطع الأخير تجاوزاً للخطوط الحمراء التي بيننا؟ فلمَ تتصرف بهذا الفسق والفجور؟

- (ضحكت كثيراً) أولاً لم أعرف أنّ خطوطاً حمراء تتربص بمحادثاتنا، وتضع الحدود لأيٍّ منا، ثانياً أنا لم أرسل مقاطعاً تنوء بفاحشةٍ لا سمح الله، هذا مقهى عام وفي عز النهار، وجلسة زملاء مضى على زمالتهم أكثر من ست سنوات، يعني من شاهدتهم يضحكون ويتكلمون هم بمثابة الأخوة، أو العائلة الواحدة، لا كما يذهب فكرك عن الاختلاط والشيطان (ثالثهما) مُكمّلهم، ويجوز ولا يجوز، نحن إخوةٌ بالنوايا الحسنة، إخوةٌ بالعلم، العلم الذي لم يكن يوماً سبباً تختلف عليه العقول المدركة.

- نظِّرْ يا بن خلدون، واخلق لنفسك الحجج والأعذار، ليس المهم أنْ تقنع نفسك المهم أن ترضي ربك.

- هذه مشكلتكم مع كلّ الناس، لا تدعونهم وربهم، تريدون دائماً الولوج بين علاقتهم مع الخالق والعكس! وهذا ما لا يحبه الله، ولا يحبه الناس، عظوا أنفسكم قبل أنْ توكلوا بعضكم بعضاً علينا أنبياء، ولا تنسَ أنت ومن خلفك أنّ سيدنا محمد (ص) خاتمهم و به خُتم علم الفقه والدين وهو القائل (إنمّا الأعمال بالنيات ولكلّ امرئ ما نوى، والدين معاملة، وأحبّ لأخيك ما تحب لنفسك).

يا وليد يا صديقي، يا وليد يا حبيبي، لقد اتّخذ أصحابك من الدين وسيلةً لإرهاب الناس، ليبقوا في الأعين عظماء ومقدسين وأولي أمر، أما أنت فقد أرهبت نفسك، وصغرت قدرك، وحصرت فكرك، وهدرت قلبك، وهذا ما يؤلمني في موضوعك وأمرك.

- اعتنِ بنفسك، لست بحاجة لمن يعظني، فمن هوان الدنيا على الله، إنه لا يُعصى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها، وأشدّ الذنوب ، أشدّ الذنوب يا علي، ما استخف بها صاحبها.

- تعجبني هذه المحادثة، أو المحاورة، وأظن أن قولك هذا من نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (ع)؟ ولذلك وجب الرّد عليك من المنبع ذاته إذ قال في إحدى خطبه (أعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل، وبه أستعين، وقال: اللهم احملني على عفوك و لا تحملني على عدلك، وقال: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الأخوان، وقال في معاملة اللين لأحد ولاته الجدد: لا تدخل عليها دخول مُتسلطٍ عليه ولا عنينٍ به ولا تنفرن بهيمةٍ ولا تفزعها).

هذه هي الأخلاق يا عالم الدين، الأخلاق التي تنبع من القلب بالفطرة فيتأثر بها العقل، واللسان، والحواس، لا تلك التي ترسمون مقاسها كيفما شاءت رغباتكم، ورغبات أسيادكم، أظنها راحت سدى سنوات دراستك، وربّ ناصحٍ عندك متهم، فتخيّر من أمرك ما يقوم به عذرك، والسلام.

- أظنُّكَ جرتَ عليه كثيراً يا علي، أنا أعرف وليد، هذا الكلام سيذبحه.

- من المفروض أن يذبحه يا عماه، لقد وصلت الأمور بوليد إلى مرحلةٍ هي قاب قوسين أو أدنى من تكفير الناس! بسبب

أفعالهم الطبيعية جداً! ولذلك وجدت من الضروري معالجة ذلك بسرعة، وبقسوة تشبه قسوة النبضة الكهربائية في الطب.

- وهل آتت أُكلها هذه النبضة؟

- أجزم بذلك، ولكن داخلياً، أمّا خارجياً فقد كان عنيداً وعنيداً جداً، وما أخذني هذا العند إلا إلى تخيّل كمية الضغط المطبق عليه من كلّ النواحي، المعنوية، والمادية، والدراسية، فآليت على نفسي التخفيف ما قدرت إلى ذلك سبيلاً، إلى أن حدثت ما يُسمى «بالثورات» وأخص بالذكر «الثورة السورية» لقد فاجأني جداً بزخمه الرهيب في الدفاع عن هؤلاء الغوغائين! وكأنه قد حضّر سابقاً كلّ ما سيقوله، هذه الفترة كانت بمثابة الصعقة الكهربائية لي، لم يُعطني مهلةٌ للتفكير فيما يقوله، أو لتفسير مشاعره تجاه تسارع الأحداث المؤلمة، شعارات تنطح الشعارات، صورٌ وهتافات وتكبيرات، كلماتٌ لم أعتد على خروجها من فيه (الشعب، الأمة، النظام، الخلافة) أحسست نفسي وكأنني فيَ الشارع حيث تعمّ الفوضى، والأدخنة، وجعجعة الألفاظ، أخذ الوقت مني وأنا أتصبّر أمامه على شاشة الكمبيوتر مثل (أبي الهول) أكثر من خمسة عشر يوماً

أختزن القهر في صمتي، وأحتمل المشقة في حيرتي، وأقاوم زوابع الصور بنقاء عينيّ، وأتريث في الرّد على زوبعته بالصبر، إلى أنْ جاءت ساعة الصفر وانفجرتُ.

شدّت جملتي الأخيرة انتباه الحاضرين وطالبتني عيونهم بالإسراع في معرفة تصرّفي وردّي فاسترسلت وأصابعي تحضر المحاضرة المسجلة لإظهارها على الشاشة الحائطية:

- كان ذلك يوم غدر ثوارهم بقافلةٍ عسكرية تسير على أوتوستراد اللاذقية دمشق، وتماماً بمحاذاة مدينة بانياس، على مقربةٍ من جسر (القوزي) شاهدوا معي، ودققوا في كلامي وفي ملامح وجهه.

أسندت ظهري إلى مسند الكرسي، مُكتّفاً يديّ على صدري، أراقب تعابير وجوههم وعيونهم وهم يسمعون صوتي، مرفقاً بشاشةٍ مقسومة إلى نصفين، الأول لوجه وليد المصدوم بالسمع والرؤية، والثاني لمقطع الكمين الغادر على القافلة، وفي الأسفل مررتُ شريطاً من الكلمات أوضح فيه ما قلته وما رده عليّ، وذلك لعدم وضوح الصوت الممزوج مع أصوات العيارات

النارية، والصراخ والضجيج الناتج عن الإرسال والاستقبال، ولذلك قرأت موضحاً:

- تفضل يا أستاذ وليد، تفضل يا عالم الدين، يا مؤيد الثورة، يا مُنظّر، أهذا ما أردته من شعاراتك، وهتافاتك؟ أهذا ما تناطحت به عليّ؟ أعن هؤلاء الغدارين تدافع ؟ أعلى هؤلاء الجنود تُحرّض؟ أأنت واثقٌ أنك كنت تعرف سبب صراخك؟ أهؤلاء ممثلو دينك؟ ورافعو راية الخلافة التي صرعتني بها؟ أهؤلاء ممثلو الحضارة؟ ضالتك يا شيخ؟ أمن أجل أنْ أكون مثلهم كنت تعظني؟ وترهبني بالنار والجحيم؟ أيّ جنةٍ تأتي من خلف هؤلاء المجانين؟ أتعرف يا سيد وليد لمن يتبع هؤلاء الجنود؟ ولمن تتبع هذه السيارات التي تتعرض لإطلاق العيارات النارية؟ نعم نعم... أجب نفسك... هذه السيارات تابعةٌ للجيش العربي السوري وليس لجيش الكيان الصهيوني! وهؤلاء الجنود جنودٌ من الجيش العربي السوري! وليسوا من جنود الاحتلال، الذين يدنسون في كلّ يومٍ وليلة أرض فلسطين، وحرم المسجد الأقصى! أتكون الأيام قد أنستك يوم جلست القرفصاء تبكي على ثلاثة جنود عميد

وعسكريين قتلوا بحادث سير؟ أأذكرك بما قلته؟ وكم يتكلف الكيان الصهيوني، واستخباراته للوصول إلى رؤية عسكري بهذه الرتبة صريعاً؟ أما قلت: إن وجود عشرة أشخاص كذاك المتهور التافه المتسبب بحادث السير قد يُغلق وكالة الاستخبارات الإسرائيلية؟ فهل أكل القط لسانك؟ أم على القلوب أكنة؟ وفي الآذان وقرٌ؟ ما خطر في بالي يوماً أن تؤول الحكاية في سورية إلى ما آلت إليها ولكن علمت منك أن من يلحق البوم السعودي يدله على الخراب، وإنّ من يتبع فقههم يرمي بنفسه إلى الهلاك، سأرسل لك هذا المقطع هدية، فهنئ نفسك بأول منجزات الثورة، وقدّم لفاعليّ هذا الإنجاز وردة، إنْ لم تكن الوردة في منظور الفقه الوهابي حراماً، خذها كلمة وستسمعها كثيراً مني (ألا لعنة الله على المنافقين).

- ما بها الصورة قد وقفت؟ لمَ لا تُكمل لنا؟

- لا شيء هو من أغلق حسابه.

- كم كان حرّياً به إغلاق فمه، وإلى متى ظلّ هذا الإغلاق، ألم يسعفه أحد مشايخه بتبريرٍ ما؟

- بلى فتح بعد أسبوع، بدا عليه الوهن والتعب، وأخبرني أنّه مرّ بوعكةٍ صحيةٍ خفيفة، ثمّ تابع الموضوع ذاته، وهو يعرف في قرارةِ نفسه أنني لم أصدقه، وأنّ غيابه لم يكن إلا لمجرد استشارة أولي الأمر في الرد عليّ، أو بكيفية الرد، بدأ حديثه ومثل أيّ مشاهدٍ لقنواتٍ اعتادت على نشر الفتنة لمصالح باتت معروفة.

- لقد أتيتك بالخبر اليقين عن هؤلاء الجنود الذين قتلوا في بانياس، هؤلاء رفضوا تنفيذ الأوامر باعتقال الأطفال وقلع أظافرهم، كما فعل رفاقٌ لهم في أفرع الأمن في درعا، فأرسل النظام من يكمن لهم على الطريق ويقتلهم، وتصور الحادثة على إنها ثورة مسلحة يجب أن تُقمع بالقوة الفورية.

- ذكي!! لا حرمك الله هذا الذكاء، أنت ومن أرشدك إلى هذه الحجة الدامغة، والله لقد أثلجتَ قلبي ليس بسبب ما احتججت به، وإنّما لتأكيد معرفتي بالغباء المسيطر على عقلك، ولئن كان هذا الغباء يتحرك بالقدرة الحقدية المتربّصة بحضارتنا، فإن له دواءً، ولكل مقام مقال حينها، أمّا بالنسبة لما قلته فأنا سأجاريك من باب الملاطفة، وخصوصاً أنك تغيرت في يومٍ وليلة! وصرت تتكلم مثل الكبار على شاشات التلفاز،

وأقصد هنا طبعاً كبار الخونة، لا تقاطعني لقد سمعت منك الحجة فأمّا عليّ أن أقتنع وأما أن أدحضها، هذه أصول الحوار التي لن يستطيعوا تعليمك إيّاها أبداً.

يا سيد وليد، كم عشت في سورية قبل سفرك الاختطافي؟ ثماني عشرة سنة أليس كذلك؟ هل سمعت عن طفل دخل فرعاً من أفرع الأمن؟ ستقول: ربما ولكن لا تعرف، وأنا سأعطيك معلومة صغيرة للتشريع السوري يعتبر به أقصى الجرائم التي يقوم بها القاصر (جُنحاً) ويعاقب عليها بالسجن في سجن الأحداث، لا بقلع الأظافر، أو قطع الأطراف والرؤوس، كما يحصل لديكم، وليكن في علمك أنّ سجن الأحداث الموجود في سورية، يُدعى سجن تأهيل الأحداث، يعني تعليمهم، وتربيتهم، والسعي إلى تدريبهم على مهنة محددة، يعني ولأُبسّطها لك، شيء ما لا يوجد حتى في مدارس السعودية الخاصة. ثمّ منذ متى والجندي السوري يملأ فراغه بتقليع أظافر الأطفال؟ همه أكبر من ذلك، همه في الأقصى يا أستاذ، في الأقصى هل سمعت أنت وأسيادك عن الأقصى، لا تُشغل بالك وبالهم بالسؤال عنه، فمن نام عن ذكره أعواماً لن يفيق من

سؤال، ومن أيّد أعداءه بضرب محبِّيْه من أهل غزة وقبلهم المقاومة الإسلامية في لبنان، لن يتأثر من كلام، حسبنا الله فيكم ونعم الوكيل، وليد يتكلم عن النظام! هزُلتْ.

- ولمَ تتعكر هكذا بمجرد الكلام عن النظام؟ أيكون القائمون على رأسه بقيةٌ من أهلك؟ أم تكون الحياة تحت جناحه كاملة الرفاهية ولا ينقصها شيء؟ أم أنه حوّل البلد إلى الجمهورية الفاضلة؟ أم أنك ستقف معه بالحق أو بالباطل؟ لأنه أمر بتحرير الجولان مثلاً؟ وبعمليةٍ عسكريةٍ سريعة.

- اسمح لي أن أصفق لك، أنا معك، أنا معك يا من يسكن في السعودية ولا يعرف عن السعودية شيئاً، لا يعرف أنّ ملك وأمراء السعودية لا يقربون أحداً من سكان الأرض إلا أنفسهم، ولا يعرف أن ٤١% من سكانها يعيشون تحت خط الفقر، و لا يعرف أن كلام الشيخ أمان أفضل من الأمن، وأعدل من العدل، ولا يعرف أن السعودية، من أكثر بلدان العالم تمسكاً بالخرافات، ويبدو أنه لا يعرف أنّ للسعودية جزيرتين في البحر الأحمر، محتلتين منذ تأسيس الكيان الصهيوني، وأنّ الحديث عنهما من المحرمات الدينية والملكية،

ولا يعرف أن أكبر مستورد للسلاح في العالم هو السعودية، مع أنّها مملكة لا تعترف بوجود عدو لها على وجه الكرة الأرضية اللهم إلا بلاد الحرف الأول والسيف الأمضى، بلاد الشام! معك حق أنْ تسألني، لِمَ أتعكّر ويسوء مزاجي حينما تذكر كلمة النظام؟ سبحان الله هذا النظام يذكرني بكلِّ الأنظمة العربية، وبمجرد مقارنةٍ بسيطة يتضح الفرق الهائل بينه وبينهم، فرقٌ قد يتورم الرأس إذا ما فكرت كيف يستطيع وحده مقاومة رجعياتهم؟ وكيف يحاول دائماً استنهاضهم؟ وكيف لا يملّ ولا ييئس مع أنّ من يناديهم قاطبة لا حياة لهم؟ معك حق أنْ تسألني لِمَ أتعكّر؟ لأنني خائفٌ على بلادي، أتعرف ممن؟ منكم، من فكركم الضال، من أسيادكم، من بلادكم التي ما وضعت يوماً يدها في مكان، ولأي غايةٍ كانت إلا ولحق بهذا المكان الخراب والويلات! أمراؤكم خفافيش الظلام، خفافيشٌ لا تحيا إلا على الدم والرعب والإرهاب.

- ونظامكم على ماذا يحيا؟

- لا تسألني أنا، فشهادتي مجروحة، ولكن تذكر وافتخر، نظامنا من هذه البلد، من حضارة هذا البلد، من بحره الذي

أوصل أول حرف، وأول نوتةٍ موسيقية إلى العالم، من هذه الجبال الشامخة قاسيون والشيخ، من عناد صلاح الدين لتحرير الأقصى، من كرامة يوسف العظمة في مواجهة الاستعمار الفرنسي، من ذكاء فارس الخوري، من نسيجٍ لا يوجد إلا في جنان الله، نظامنا يحيا على الحب والسيف، يحيا على حب الله والتراب والضيوف، يحيا على مقاومة الظلم والرجعية والعدو.

- مسكين... مسكين، عشت مسكيناً، وعلى الأرجح ستموت كذلك، النظام يضحك عليك وعلى أمثالك، فلا أنت تربح دنيا، ولا أنت تكسب آخرة.

- سيأتي يوم ونعرف المسكين منا، أنا في بلدي مسكين ولكن بشعور ملك، فحاول أن تكون ملكاً في بلادٍ لا يعترف بالبشرية إلا للأمراء أما البقية الباقية من سكانه الأصليين رقيقٌ عبيد، فأيّ حالٍ سيكون حالك وأنت الوافد الغريب؟ ويا ليتك وافدٌ من بلاد يخنع لها أمراؤك كبلاد الغرب وأمريكا، أنت وافدٌ من بلادٍ لا يُعدُّ في نظرهم أكثر من معادٍ! وكأني في غدٍ أراك تفتي بلسان شيخهم، وتضرب بيد سيّافهم ولكن لا تأمر بإشارة أمرائهم، وليست حالتك بالتي يتوه عنها العاقل فيظن بغير

ما سيحدث، ولئن سألت الطفل على ماذا يدل البرق و الرعد؟ فيجيب على المطر، وعلى ماذا يدل البوم؟ يجيب على الخراب، وإنّ غداً لناظره قريب.

- كلامك يقنع الحجر! فكيف لم يقتنع؟ صحيح أنّ طبيعته معاندة ولكن ليس إلى هذه الدرجة، بكلمتين تأخذ وليد إلى البحر، وترجع به عطشاناً، فما الذي حدث حتى استطاعوا هم إقناعه على الباطل؟ ولم تستطع أنت إقناعه بالحق؟ أيعقل أن تُغسل البصيرة فوق غسل المخ؟

- لم تخطئ يا أستاذ، فوليد كان مقتنعاً بكلامي حرفياً وتشبثه برأيه لم يكن قوياً، وما في داخله من قناعة أنا أعرفها، لكن ما يسيطر عليه خارجياً تاه عني.

- وإلى متى بقيت هذه السجالات؟

- إلى أن فاجأني ذات يوم برسالةٍ إلكترونية من حسابه السرّي «المهاجر» وعن طريق هاتفٍ محمول ليخبرني أنه دخل الأراضي السورية وذلك قبل أحداث مدينتنا الحبيبة عدرا العُمّاليّة بثمانية أشهر!

- ولدي كان هنا!؟ وقبل أحداث المدينة بثمانية أشهر! ولم نره!؟ ولم يزرنا! ولم تخبرنا أنت!! ما حدث لهذه الدنيا؟

- لم يحدث شيءٌ، لقد تفاجأت مثلي مثلكم، وخاصة عندما أجابني عن سؤالي حول أحوال المطار حيث الشائعات الكثيفة حوله، بأنه لم يدخل البلد بشكلٍ نظامي وإنما عن طريق أحد المعابر غير الشرعية مع الأردن.

- يعني خلسةً؟

- تماماً، وهذا ما عيَّرته به، حيث قلت له موبخاً تصرفه اللصوصي، ما الذي يجبرك يا وليد أن تدخل خلسة كاللص؟ أنت مواطن سوري ويحق لك استخدام المرافق السورية كأي سوري! هذا حقك - إن لم تكن مطلوباً بجرم ما - ولا أعتقد أنّك من هؤلاء المطلوبين.

- أنا دخلت مع الفاتحين إلى أرض الجهاد، وأنت تريدني أن أدخل عن طريق النظام المحتل!

- أنت تمزح؟ بربك ألا تمزح؟

- وهل في هذه الأمور يكون المزاح؟

- لا أبداً... ولكن في هذه الأمور يدخل الشيخ وليد، خريج أرقى جامعات وكليات الشريعة الإسلامية في السعودية، إلى بيته لصاًا! غير مرغوبٍ به، وبطريقة دخوله، الشيخ وليد لا يمزح، وهو غير معني بدخول البيوت من أبوابها! وهل في هذه الأمور مزاح؟ وخاصة أنّه يمتلك الحق الشرعي بتطبيق ما يراه مناسباً، ومخالفة ما يراه غير مناسبٍ من شيخه الأعظم، أو من عميد كليته، أو من أصغر وهابي سلفي، أطال لحيته وحلق شاربه وما يعادل ذلك! أنت لا تمزح في هذه الأمور!؟ ومن يحل قبالة هذه النخبة الدينية؟ حتى أنفذ أوامره وأهجر ما تأمرني به؟

- أتسخر مني؟ أولاً أنا دخلت أرضي لا أرض أحدٍ غريب، وثانياً أهل هذه الأرض رحبوا بي من أول خطوة إلى أن أوصلوني إلى حيث أنا، وثالثاً ليس من المفروض آخذ أذن الدخول من نظام جئت لإخراجه ولتنظيف الأرض من دنسه.

- أيها الأحمق الذي لا يعرف نفسه، ولا يعرف كيف يتكلم، أتعتبر دخولك ليلاً وبرفقة عصابة من المارقين قاطعي الطرق

دخولاً نظامياً؟ وتسمي النظام الذي عشت أنت وأهلك تحت جناح عنايته بالمحتل!؟ وجئت لتنظف البلاد من دنسه! أتعرف ما يعني النظام؟ النظام ليس رجلاً أو بضعة رجال، النظام هو الدولة، وكلّ من يعمل فيها بأيّ عمل عامٍ أو خاص، ويعيش تحت ظلها، وبكلامك هذا تعتبر أنَّ أمك وأباك وأختك دنس! فتفضل وتخلّص من هذا الدنس، يا من يظن نفسه موسى بن نصير، أو طارق بن زياد، أو على الأرجح غسلوا لك عقلك لتظن نفسك صلاح الدين الأيوبي! ولتظن سورية فلسطين! ولتظنّ أنّ النظام الذي يحمي البلد إنما هو بمثابة العدو الصهيوني! اصحَ، اصحَ يا أيها الثور، أنت تذهب إلى المقصلة بقدميك! اصحَ إنْ لم يكن من أجل أهلك فمن أجلك، كثيرون من دخلوا هذه البلاد بما أردت ولم يخرجوا منها، حفروا قبورهم بأيديهم وماتوا ميتة الكلاب غير مأسوف عليهم ولا هم فائزون، وما أكثر العبر و أقل الاعتبار.

- هذا خنوع مترسخ في عقلك وكيانك، ولقد تخلصت منه منذ زمن بعيد، وسأخلص منه ما استطعت هؤلاء المساكين، سأعيد الحق إلى نصابه، حتى لو كلفني ذلك حياتي، وإلا ما نفع

ما تعلمته ودرسته وتشرفت باعتناقه منهجاً وصراطاً؟ ولسوف أبدأ بالأقربين ولن يطول الزمن حتى أكون قريباً منهم.

- ماذا تقصد؟ أتقصد عدرا؟ إيّاك أن تقترب منها، أنت لا تعرف ماذا ستجر عليها مع رفاقك من السوء، لا تقترب منها ستندم...

- لو لم تكن هي وأهلها في بالي لما أتيت، إنّها فرصتي لأصوب طريق الصراط المستقيم لأهلي وأحبابي ومنهم أهلك.

- من هذه الناحية أطمئن قد لا تلحق فهم في آخر مرحلة من مراحل براءة الذمة للخروج على المعاش بسبب الوضع الصحي، وبين يومٍ وليلة سيرحلون، فإن كانوا قصدك فاكسب نفسك، وعدْ من حيث أتيت، أو تجهز لتكون فرداً منا كما كنت، وغادر إلى حيث سيسكن العروسان أخي وأختك في بيتنا الريفي المطل على البحر، موعد العرس قريبٌ جداً وبظرف شهر إن شاء الله.

- لن أسمح بذلك أبداً، أختي لن تكون لأخيك حتى لو كلفني ذلك حياتي.

- وليد أنت تعود مرّة أخرى إلى ما سامحتك عليه فيما مضى، واعتبرته زلة لسان لك، نحن مسلمون وقبل أن نكون كذلك، نحن سوريون، وإذا لم تتعلم أنّ الدين أشمل وأعم مما تلمح له فأنت تصنف كلامك بالمرتبة الأولى للفتنة، ونحن على صفيح هاجت تحته نيرانٌ غريبة، فأدرك لسانك، واقطعه قبل أن يقطعك، وتكون واحدة من تلك الأحطاب المساعدة في تأجيجها، وقد يُدخلك هذا اللسان ما حاولت تجنبه من دراستك الشرعية، ثمّ منذ قليل كان أهلي أحبابك، فما عدا مما بدا؟ أم صرت تتأرجح بكلامك كمن يتخبطه الشيطان من المس؟

- تكلم ما شئت، فلم تعد تهمني لا أنت ولا أهلك، المهم عندي أختي ومصيرها، وإلا ما نفعي وقد هداني الله ليهدي بي من أضل سبيلاً؟

- أتظن نفسك مؤمناً؟ وما الإيمان إلا معرفةٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان، وما أظن فيك من ثلاثتهم شيئاً، فافعل ما تشاء وتذكر نصيحتي بأنّ بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد، ومن سّل سيف البغي قُتل به.

- دعني منك ومن هذا القليل الذي تحفظه من هنا وهناك، أختي أغلى عندي من كلامك، وسأمنعهم من تحقيق ذلك ولو لحقتهم إلى بيتنا في ريف حمص.

- ريف حمص!؟ حيث لا بيت لكم؟ ألم أقل إني أعلم ما لا تعلم وما لا يدعونكَ تعلمه، لقد بات بيتكم وقريتكم كلّها في يد رفاقك يا نصير المستضعفين وسيُقطع رأس أبيك إنْ خطر بباله مجرد التفكير بالعودة، فتحرى بوساطة«أسلوبك الذكي» و«معارفك العميقة والمتجذّرة» عن ساكنه الجديد فلعله يكون أميراً أو مفتياً شرعياً يأمر بجلدك ثمانين جلدة، لأنك تطالب بإعادة الغنائم إلى أهلها، وإنْ كانوا أهلك!

- أنا لا أصدق؟ أنت تحاول تشويه سمعة الثوار بإشاعاتك، هؤلاء أناسٌ صادقون وشرفاء في معاملاتهم سواء أكانوا في سلمٍ أم في حرب.

- يا أخي حيرتنا معك ومع رُفقائك، أجئتمونا مُفقهين؟ أم محررين؟ أم ثائرين متمردين على هذا الوضع؟ وتريدون تصحيحه، نحن لا فرق عندنا بما تسمون أنفسكم فأسماؤكم لن

تغير في نظرتنا عنكم شيئاً، مجموعة من الغوغائيين المجرمين لا أكثر ولا أقل، أمّا بالنسبة لبيتكم فتحقق بالوسيلة التي تراها صائبة، من استيلاء هؤلاء الثوار عليه، واحلم بالرجوع إليه والسكن فيه، الحلم ليس حراماً اللهم إلا إذا أفتى لك شيوخك بحرمته، فلهم في كلّ ساعة فتوى ولا فرق إنْ ماثلت التي قبلها أو خالفتها، المهم جاهزية عالية لإصدارها وإن كانت تواكب مصلحة عشرة أشخاص لا غير، والسلام على من جاءنا ليقتل السلام.

- أنكمل قليلاً؟ أم تعب الجمهور؟

- إنْ لم يكن لديك عمل فأكمل، أعتقد أننا قاربنا من خطوط النهاية؟

- نعم يا أبي، قاربنا جداً من حواف النهاية، وسأتابع اليوم إلى ليلة دخولهم المدينة، لأكمل غداً النهاية وليعرف الجميع ما خفي عنه، ثمّ لينام من شاء النوم على الجنب الذي يُريحه، عفواً يا هديل ألا أستحق منك أو من ريم فنجان قهوة؟ أم يجب أن أعيد سيمفونية «نشفان الحلق» استجداءً لفنجان قهوة؟

- لا تؤاخذنا، حكايتك السبب، فاعتب عليها وعلى أسلوبك الساحر في سرد وقائعها.

بعد استراحةٍ قصيرة، تناولنا فيها القهوة اللذيذة، وتناول فيها مريضانا حبتيهما، عدت إلى ما كنت قد وصلت إليه.

- طبعاً، وليد وبعد التقصي، بدأ يتلقى الصدمات بانهيار أحلامه، فلم يستطع التدّخل بزواج أخته الذي تمّ في موعده، ثمّ تيقّنَ من سيطرة من سماهم الثوار على بيتهم الجديد، وكنت أزيد أنا على طينته «البلّة»، في كل محادثة، فمرّة أخبره عن أحدث الفتاوى التكفيرية المثيرة للسخرية بجواز جهاد النكاح واللواط، ومرّة أخبره عن طبيعة الثوار القادمين من سجون المملكة لتحويل سورية إلى مزهرية وردٍ تنتشر منها تعاليم الخلافة الإسلامية إلى بقية الدول، وأكثر المرات أرسل له على موقع «الواتس آب» صوراً من مجازرَ أحدثها رُفقاؤه هنا أوهناك، وتحت ما يُسمى «ثورة الحرية» إلى أنْ أرسل لي يوماً صورةً لشابٍ ملتحٍ وكان قد مضى على دخوله سورية ثلاثة أشهر تماماً، فيسألني:

- ما رأيك بهذا الشاب؟ هل تتذكر هذه السحنة؟ حاول أن تتذكر لتعرف أنّ الشعب برمّته معنا ومع غايتنا الجهادية، لإحلال شريعة الله في دولة الخلافة الإسلامية«بلاد الشام».

- رأيي بهذا الشاب إنّه عبارة عن مجرم لا أكثر ولا أقل، أما عن تذكُّرِه فهل يستطيع أحدٌ ما تمييزكم عن بعض؟ من رأى منكم واحداً كمن رأى الجميع! أشعر وأنا أشاهدكم وكأنني أمام فيلمٍ يمثل الحياة البشرية الأولى أو حياة الإنسان الحجري.

- تحدث بما شئت، فقد قُهرت بمجرد معرفتك بأنّ شباب بلاد الشام، ينضمون وبإرادة قوية لجبهة النصرة التي ترفع راية الإسلام، المقهور معذور، وأنا لن أزيد نار قهرك كما تفعل أنت بي، لأنني أقدّر الدوامة التي وضعكم النظام فيها والتخيّل السطحي لبقائه، بينما تدور رحى الشباب والخلافة لتصل إلى مبتغاها، هذا نائل ابن بائعة الحليب، هل تذكرته؟ وتذكرت أمه؟ إنه الآن زعيمنا وأمير عدرا البلد! ونحن رعيته وتحت رعايته، ولا شيء ينغص عليّ العيشة هنا إلا أمران، الأول أمه التي تبادل دوماً توددنا كجماعة بنظرات الريبة والقرف! والثاني

انتظار حلمي بدخول عدرا العُمّاليّة حيث الأهل الضائعون في دنيا الأوهام.

- أنت الآن في عدرا البلد!؟ كيف وصلت إلى هنا؟ وأين كنت أصلاً؟ وما عملك فيها؟ أما فكرتَ بما قلته لك؟ ألم تُحاول إبعاد نفسك عن هذه الورطة؟ تعبت من الكلام معك ومن نصائحي، ولا أعرف ما الذي يجبرني لتكرار محاولاتي لتخليصك مما أنت به؟ على كلّ حال كلامك عن السيدة الطيبة أم نائل لن يُغير من سمعَتِه شيئاً، وما نظراتها لكم إلا عن معرفةٍ قويةٍ بولدها الغبي وبكم كتابعين أغبياء له، واقترابك من عدرا العُمّاليّة لن يغير فيما حصل بها من وقائع أيضاً، لقد سافر الأهل يا وليد، سافروا جميعاً.

- من تقصد؟ هل سافر أهلي؟

- هذا هو الفرق بين الدين الذي أحمله في صدري وبين (المذهب البدعة) الذي أتيت به، أنا ديني يعتبر كل الناس أهلاً، وأنت مذهبك سيُكرّهك حتى بأهلك الحقيقيين!

- لم تجبني! هل سافر أهلي؟ وإلى أين؟

- سافروا مع أهلي، ليسكنوا الطابق الأول من بيتنا، ليصبحوا بذلك جيراناً لابنتهم القاطنة فوقهم مباشرةً، ولم يبقَ في بيوتهم بعدرا إلا بعض الأغراض التي تكفّل حيّان بجلبها بالتقسيط حسب مواعيد إجازاته.

- هذه مؤامرة خسيسة منك! تريد أنْ تُبعد أهلي عني وعن الحق، لكني لن أيأس، سأتابع في هذا الطريق إلى أن يحق الحق أو أموت دونه.

- هي مؤامرة حقاً! وعليك أنت بالتحديد، لكن لستُ من طبخها وصنعها لك، الطبّاخ الحقيقي، مذهبك الوهابي الخطير، أما القِدر فهو عقلك المُجمّد من أول يومٍ سافرت به إلى السعودية، ثمّ ما هذه الجملة الرائعة التي ختمت بها حديثك (أو أموت دونه)؟ ستموت يا حبيبي ستموت، لا تستعجل، كلّ واحدٍ فيكم يحفظ كلمتين عن النبي (ص) فيظن أنّه رفيقه!

- سيأتي يومٌ ما، وأحاسبك على ما تقوله بحقنا وما تفعله بي.

- تحرر أولاً من زعامة نائل، غبي المدرسة، ثمّ افعل ما تشاؤه يا طويل العمر.

- إيّاك أنْ تذكر أميرنا بهذه اللهجة! كي لا تحل عليك لعنة الله ورسوله والمؤمنين.

- علمتني روسيا الشيوعية الملحدّة، كما تصفها حضرتك، أنْ أكون حراً في رأيي، وكلامي، وأوصافي، كما علمك مذهبك العقيم تقديس الأغبياء، والكسالى، والمجرمين، وكما أنت حر فيما تقدس، أنا حر فيما أقول، وافتِ بأشدّ ما عندك من عقوباتٍ يا مفتي الجماعة، افتِها و لا تنظر وراءك، فما همّني بعد ضياعك الكلام والفتاوى.

- أحسنت يا علي! أحسنت يا ولدي! جزاك الله عنا وعن بلادنا كلّ خير، من أين تأتي بهذا الكلام الجذّاب، المؤنق، البليغ، اللاذع، المفحم؟

- من الإصرار يا أبا الوليد، آه، لو تعلم تحملي لمدى القهر الذي أصابتني به حالة وليد! وأنا أراه يذوب من بين يدي تعنتاً وتمسكاً بأفكارٍ بالية وخطيرة.

- لعنهم الله، لقد ورطوا أولادنا وتسببوا بمقتلهم وخسرانهم الدارين، أكمل يا ولدي أكمل.

- أوجزت لكم الكثير من الموضوعات ولم يبقَ إلا موضوعٌ أضحكني كثيراً عندما أخبرني به وهو تصميمهم على محاربة الأحزاب. أذكر كنا نأتي على سيرة الأحزاب، وكيف قام الحزب الشيوعي «اللعين» كما يُسميه من إفراغ الدين والإيمان من قلوب الناس، إلا أنه نجح مقابل ذلك بتطوير البلاد من خلال ثورات صناعية، وزراعية متطورة، وإحلال سياسات سكنية، وتنمية بشرية رائدة، على مستوى العالم، وانطلاقاً من دراسة واقع هذا الحزب، وغيره، قررت قياداتهم وزعاماتهم، القضاء على مجموعة الأحزاب المكونة في سورية، ليحلّ مكانها نظام اجتماعي ما «نظام الخلافة الإسلامية» فيعيد النهج الديني إلى بادئ عهده وفي الوقت نفسه يعمل على تطوير الحياة بكلِّ مجالاتها.

- على من تضحك يا وليد؟ وهل تعرف قياداتك السعودية وزعاماتك النائلية أيّ فكرة عن كلمة الأحزاب؟

وليد لا تكن كالببغاء، الذي يردد ما يسمعه، أو الرجل الأحمق الذي لا يفقه ما يقول، الحزب يا وليد تعبير ديمقراطي حر، يتبناه مجموعة من الناس، بهدف تطوير الحالة الاجتماعية

والمعيشية لهم ولكلّ من يوافقهم الرأي، وأعتقد أن هذه المعاني التي ذكرتُها لك غير معروفة بالنسبة لآمريك، وأغلب ظني أن لديهم كرهاً لهذه الكلمة ليس لأنها خارج القاموس الوهابي وحسب، وليس لأن جمعها يذكرهم بأحزاب الخندق وحسبْ، بل لأنهم لم يستطيعوا مع تجمّع كلّ إمبراطورياتهم الإعلامية الخليجية، ومع كلّ زخمهم المادي والسياسي والنفطي، ومع كلّ قوى عروشهم المستندة إلى القوات العسكرية الغربية والأمريكية، أنْ تحذف من الخارطة الجغرافية، والبشرية، والقلبية، جماعة صغيرة عملت للحق، وعملت للشرف، وعملت للمقاومة، وعملت لفلسطين وللأقصى، جماعة صغيرة جداً سموا أنفسهم «المقاومة اللبنانية». وكم ودّ أصحابك حذف كلّ كلمة تدل عليهم.

اصحَ يا وليد، من كابوسك الذي تظنه حلماً سعيداً وجميلاً، فما أنت إلا عدد جيء بك لترهب بالكثرة أبطالاً سيسحقون مُرسليك، اصحَ، فمتى كان فاقد الشيء يُعطيه؟ أو يمنحه؟ أنتم تحاربون (أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية) التي بنت سورية الحديثة! حيث تعلمت أنا وأنت في مدارسها، وتداوى أبي

وأبوك في مشافيها، وتوظف أخي وأختك في مؤسساتها، الدولة التي نحيا فيها بعزة الله وعزة أنفسنا، لا كما يحيا الشعب المقموع في مملكة النفط بعزة أمرائه من آل سعود، أو كما يحيا الأمراء أنفسهم بعزة أسياد البيت الأبيض، الدولة التي عشنا جميعاً على ترابها بمحبةٍ كعائلةٍ واحدة، أو كما عشنا في الطابقين في عدرا العُمّاليّة التي تسنون أنيابكم على عضها.

أكنت تغشني كلّ هذه الأعوام يا وليد؟ وتتظاهر بأنك سعيد بما جرتْ عليه يد القدر، فحولتْ دراستك من الهندسة إلى الشريعة والهداية، وغيرت بلد البعثة من «روسيا الكافرة الملحدة» إلى «بلد الإيمان» يا الله كم أنت ممثلٌ رهيب! استطعت أن تغش نفسك طوال هذه السنوات!؟ استطعت أنْ تقايض رغبتك وحياتك بما لم تشته طوال هذه الفترة الشبيهة بالسجن النفسي والجسدي!؟ استطعت أنْ تُبدّل أحاسيسك ومشاعرك وذكرياتك وأحلامك بأشياء بعيدة جداً عن كلّ تصوّراتك بهذه السهولة!؟ كيف استطعت ذلك؟ إنكَ لجبارٌ عنيد! ثمّ هل تظن إنّ مجتمعاً ما أو نظاماً ما يخلو من بعض النفوس الضعيفة؟ هذه سنة البشرية مذ خلقها الله، فرضي الناس عن عقولهم،

ولم يرضوا عن أرزاقهم! وهكذا فمنهم من قنع بمرور الزمان بقسمته ونصيبه ومنهم من أبى إلا اتّباع الأساليب الملتوية، الجنة تريد المؤمنين، والنار تطالب بالمزيد من المنافقين الكافرين الجاحدين، ولئن صبرت يومها فلربما كان غير ما كان إلا أنْ الغيرة أعمت عينيك، وأظلمت سبيلك، فرفضت اللحاق بحلمك، واستكنت، ورفضت الاستماع إلى نصائح أبيك فضللت، وما أوصلك إلى الذي أنت به إلا عنادك واستعجالك، ومع ذلك فلا غفران لك ولا عذر بقدومك قدوم هؤلاء الحاقدين، وقد أصبحت ذا علم ومعرفة بعلوم الحلال والحرام، ولو أنّ أمثالك ممن ظُلموا تصرفوا تصرفك هذا لعمّ الخراب بلدنا الحبيب إلا أنهم أدركوا بصفاء عقولهم ونقاء سريرتهم حجم مؤامرة الرمال المتحركة لتغرق جبال سورية العاتية فأودعوا مظالمهم عند من اسمه الحق العادل ليسترد لهم ما سُلبْ، وعلقوا شهاداتهم على الجدران، وهبوا في وجه الإعصار القادم بقوة القبضة الفولاذية للسلاح الغربي وبهمجية الأحقاد الرجعية الممتدة من أيام أبي جهل، وما قالوا إلا مقالة الشاعر:

بــلادي وإنْ جــارت عــليّ عزيــزةٌ

وأهـــلي وإن ضـــنوا عـــليّ كـــرام

وحضرتك يا شيخ وليد، أتعبت نفسك في حمل حقدٍ لسنوات، وجئت لتنتقم من مجموعة صغيرة، بخراب بلدٍ كبير، تُشرع وتُفتي على هواك أو على هوى رجل جاهل كان فيما مضى مضرباً للمثل في الغباء، ومع ذلك تعتبر نفسك مظلوماً، فسبحان الله!! تتجرأ على نفسك وعلى الناس وعلى بلادك وعلى ربك وما تشعر بالندم ولا بالخطيئة! صدق ربي حين قال في محكم آياته: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾ (القصص٥٦)

- وماذا بشأن والدي؟ أنسيت ما الذي كان سيحدث له لو لم يُقوض الله له أباك وجارنا السيد نزار؟ كلّ مجتمعك فاسد ويحتاج إلى ثورةٍ إسلامية تُعيده إلى الصراط المستقيم، ولن أحيد عن درب تقويمه حامداً شاكراً ربي على خلقي بهذا الزمن الذي أستطيع فيه خدمة الدين الإسلامي الصحيح القويم.

- لو كان كلّ ما قلته صحيحاً لما التقى أبي والسيد نزار وحتى والدك معاً ويداً بيد لحل هذه المشكلة، كان للشياطين

وللباطل صولتهم، وكان للحق ورجالاته جولة زُهق بها الباطل. إنّ الباطل كان زهوقاً، فأين هي حجتك التي تحاول فيها تبرير قدومك؟ وربما تبرير بعض جرائمك بإصدار أحكامك الشرعية على بعض الأبرياء، وهذا ما يخيفني من أنْ تكون قد ارتكبته على حين غرّة أو بلحظةٍ اعتززت بها بكثرة الإثم.

- ومتى كان الإثم يتماشى مع الكثرة؟ هذه إرادة شعب بالتغيير، هذا حلم المواطن السوري بالأمة الإسلامية الكبرى الممتدة من الصين إلى الأندلس، والسؤال لك، لِمَ تحاول أنْ تقزّم الأمر؟

- أنا أتكلم معك بتجرّد عن أيّ شيء، أما قرأت في القرآن الكريم عن كثرة أتباع الإثم؟ وتفوق المنافقين والفاسقين على المؤمنين بالكثرة والعدد؟ هذا أولاً، أما ثانياً فهل هذه إرادة الشعب السوري كما تدّعي؟ أتستطيع حضرتك أنْ تعدَّ لي أسماء الغرباء في مجموعتك المتواجدة بعدرا البلد؟ أليس فيهم من الشيشان والأفغان أحد؟ أليس فيهم من العربان والخليجيين أحد؟ أليس فيهم من بلاد الغرب أحد؟ أليس عندكم من

أسلحة الكيان الصهيوني شيء؟ وكيف دخل؟ أجئتكم أنا به؟ ثمّ من قال لك إنَّ حلمي أنْ تمتد الأمة الإسلامية على هذه الرقعة؟ ومن هنا، من بلاد الشام أو من دمشق؟ أنا حلمي أنْ تمتد على رقعة القلوب البشرية، ليدوم الحب والخير، ولئن شئت غير ذلك أنت وأسيادك، فلمَ لا تبدؤوا من الرياض؟ أو من مكة بتوسيع هذه الرقعة؟ أليس من الواجب أن تترأس هي هذه الرقعة؟ أم في الأمر ما فيه!؟ ووراء الأكمة ما وراءها!؟

أظن أنني قد بالغت لك في النصيحة، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع، لقد عُميتْ بصيرتُك! وما منك ومنها بعد هذا العمى نفع ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنها لا تُعمى الأبصار ولكن تُعمى القلوب التي في الصّدور**﴾ (الحج٤٦).

- أيّ والله يا ولدي، لقد أديت واجبك بالنصح، والأخوة، وما عليك بعد ذلك من حرج بأفعاله:

قـــد أســـمعت لـــوناديـــت حيـــاً

ولكـــن لا حيـــاة لمـــن تنـــادي

- آه، لقد سرقنا الوقت يا عماه، وأظن أنني تسببت لكم بالتعب الشديد فاعذروني فما وجدت للاختصار طريقاً أكثر من ذلك، وقد أصابني التعب والإرهاق، سأكمل غداً، أنا آسفٌ لعدم إيفائي بالوعد، وبإكمال القصة إلى النقطة التي حددتها لكم، تصبحون على خير.

في صباح اليوم الباكر، قرع العم أبو الوليد باب غرفتي بهدوء، ليُفاجئ بخروجي باللباس الرياضي الكامل!

- صباح الخير، أحببت أن أوقظك باكراً لأخرج معك، ما شاء الله، أنتَ شابٌ نشيط يا علي، مازال نشاطك كما هو لم يتغير أبداً.

- صباح النور يا عم، أنا لم أتغيّر، فما الذي غيّرك أنت حتى تحب المشوار الصباحي؟

- لا أعرف، لقد حيّرني كلامك البارحة، ولم أستطع النوم بالأريحية ذاتها التي سبقت في الليالي الماضية

- حيّرك كلامي!! من أيّ جهة تقصد؟

- دعنا نخرج الآن وللطريق البقية من الحديث.

لم نكد نستلم بداية الطريق الحراجي حتى بدأ الحديث:

- علي ألم تقل إنك علقت صورة وليد في خيمة العزاء لأنه يستحق ذلك؟

- نعم، وما هو المُحيّر في ذلك؟

- المُحيّر، أنني لم ألاحظ إيّ تغيير على أفكاره أو أيّ استجابة إيجابية لنصائحك، يعني الرجل لم يتغير ظلت الغشاوة على عينيه وقلبه! فلِمَ تُعلق صورته؟ أكنت تُهدأ من روعنا؟ خوفي أنَّ ذلك ما كان.

- لا يا عم، أنا حضرت كلّ شيء، وجعلتكم تشاهدون المحادثات بالعين المجردة، وأسمعتكم إيّاها بصوتي لتتيقنوا جميعاً، وعلى الأخص أنت وأمه من أن ابنكم مات ميتة يستحق عليها تعليق الصورة والتبجيل، لقد انتصرت مورثاتك الدموية الأصيلة، وتربيتك الوطنية الحقيقية، على ما اكتسبه من طبائع مزيفة، من أناسٍ مزيفين، وبلادٍ سُميت وهماً «المملكة العربية السعودية» وسترى اليوم الانقلاب الصحيح للصورة، فطب عيشاً ومتّع نظرك بهذه المناظر الخلابة، وأنفاسك بهذا الهواء النقي.

تركته جالساً شارداً باتساع البحر أمامه، ومضيت أتابع رياضة المشي البطيء، غبت عنه أكثر من ساعة، ولما عدت رأيته على الوضعية ذاتها ، تمسك بيدي ونهض بهدوء.

- أواجبٌ عليك أن تسند العائلة بالكامل؟ نحن نُحمّلك أكثر من طاقتك.

- أنا ولدك يا عم، ووليد أخي، و ما فعلته معه ومعكم أقل من الواجب بكثير، لقد عجن الزمان أقدار السوريين بعجينة واحدة، عجيبة التراكيب، وخبأ مفتاح شيفرتها في قلوبنا جميعاً ولهذا نحن بحاجة إلى كلّ القلوب مجتمعة على كلمةٍ واحدة، وإرادةٍ واحدة، وحبٍ واحد، ولا سبيل للخروج من أزمتنا إلا بتلك الشيفرة فهيّا لنعود أدراجنا إلى بيتنا كما كنتما تعودان أنت وأبي إلى بنايتنا في عدرا العُمّاليّة.

كلّ شيءٍ أصبح اعتيادياً، حتى الحزن الذي لا يعتاد عليه أحد، صار تفصيلاً أساسياً من تفاصيل حياتنا، مؤسفٌ جداً أنْ يحكم الأسى هذه البلاد، بلادٌ بهذه العظمة وبعمق هذه الحضارة، يقاسم أبناؤها الآن الحياة مع لصوصٍ غرباء، مع أجناسٍ بشرية خرجت كطفرةٍ عن التكوين الطبيعي للإنسانية،

وما زالت رحى هذه القسمة تدور وتدور، فإلى متى؟ أما وجبت الإفاقة؟ أيّ صرخةٍ تلك التي تستطيع رفع الغشاوة عن العيون والقلوب؟

الاجتماع مكتمل النصاب، والحلقة الأخيرة من حكايتي قاب قوسين أو أدنى من العرض على شاشة الإسقاط، ولذلك قدمت حبتي المساء للمرضى، وجلست أحتسي فنجان القهوة الساخن بتلذذ لأقتحم الصمت بحديثٍ سريع بدأته بقولي:

- عاش وليد في عدرا البلد متردداً! وكأنني أصبت منه العقدة الفكرية، أو ربما الدينية، فقد كثرت أسئلته عن الأوضاع الحقيقية للمدن وللناس، وبدأت مقارناته لمشاعرهم تجاه جبهة النصرة، بنفض الغبار حتى وصلت به الأمور إلى إيقاف المحادثات الكتابية، ومحادثتي صوتياً وعبر سماعة الهاتف دون أيّ مراعاةٍ لاختلاف الوقت بين ريف دمشق وموسكو، اعتمدتُ سياسة الهزات العنيفة معه، وخصوصاً بالحديث عن زعاماته الخليجية التي تسببت بالغسل الفظيع لبصيرته، حتى أوصلته لمرحلةٍ صار فيها مفتياً شرعياً لتبرئة قتلة شعبه، أو أُعنِّفه لرضوخه الأعمى لقيادة شابٍ خليجيٍ غريب، يتحكم

برقاب الناس كما يتحكم بتمويلهم! أو شابٍ جاهل لا يكاد يعرف أحرف الهجاء من بعضها كنائل وغيره من كسالى المدارس أو قاطعي الشوارع وكلما ذكرتُ له آيةً قرآنية تُقارب هذا المعنى صَفَنَ «شرد» وانقطع صوته عني ليعود بعد ثوانٍ مُحتجاً بضعف التغطية الخليوية .

آخر اتصالٍ له قبل دخولهم عدرا العُمّاليّة بيوم واحد، كان يبكي، لم أستطع تمييز أسئلته إلا أنني فهمت منه سؤالاً يسألني به عن رضا والديه، فأجبته وبسرعة رافعاً صوتي:

- لا تخف يا وليد سيكون والداك راضيان عنك طالما أنك لا تعصي الله في طاعة من تسميهم أمراء، أنت أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن تكون مع والديك وبالتالي مع الله، أو أن تكون من هؤلاء القتلة وبالتالي فأنت من أولياء الشيطان وحزبه، ما زال الوقت أمامك فعد إليهما لتعبر برضاهما الصراط المستقيم، هذه نفسك يا وليد، فما الذي ستربحه إن ربحت العالم وخسرتها؟ اتصل بهم واترك الباقي عليهما لن يعجزا عن إنقاذك، فبادر قبل أن يفوتك قطار الله والسلامة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ لمَ لم يتصل؟ إن كان وصل إلى هذه القناعة، فلمَ دخل عدرا العُمّاليّة معهم؟

- ما حدث أنّه وتحت قوة السلاح أُرغم على الدخول إلى مدينة عدرا العُمّاليّة، وذلك بعد أن أُعلنت ساعة الصفر للخلايا النائمة في عدرا العُمّاليّة وبدأ الهرج والمرج، دخل ليكون قاتلاً أو مقتولاً.

- أيستطيعُ أحدٌ ما تحويل أيّ شاب في لحظة إلى مجرم؟ هذا شيء لا يحدث حتى في عالم السحر! كان عليه أن يرفض حتى لو تسبب رفضه بمقتله.

- أحسنتِ يا ريم، نظرياً هذا ما يجب أن يحدث، أما عملياً فالذي حدث مُسجلٌ في هاتفي المحمول عبر برنامج تسجيل المكالمات، فاسمعي مع السامعين، لتعرفي الحقيقة، ولتحكمي بعد ذلك على وليد من خلال تصرفاته بمسار الأحداث، سأبدأ بأول مكالمة، وعلى فكرة المكالمات مكتوبة حرفياً وباللهجة العاميّة، ولمن شاء التدقيق فليتابع الصوت بأذنيه والكلمات بعينيه.

- ألو... ألو أهلاً وليد.

- علي، أرجوك يا علي، أنقذني يا علي، لقد دخلنا عدرا العُمّاليّة، والمناظر مرعبة... مرعبة أرجوك.

- وليد أنا لم أفهم عن أيّ شيء تتكلم؟ لا تقل إنكم هاجمتم عدرا العُمّاليّة؟

- بلى... بلى لقد صوروا لي أنهم سيدخلونها دخول الفاتحين من المسلمين، ولكن للأسف الجثث في كلّ مكان، قالوا إنهم لن يقتلوا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً، و لن يؤذوا دابةً ولن يقطعوا شجرة وما أرى إلا عكس ذلك.

- لمَ دخلت معهم؟ ألم أنصحك؟ لمَ بعت نفسك؟ أنت الآن شيطان مثلك مثلهم.

- لم أعِ على نفسي، أيقظوني وقالوا إن الأوامر قد أتت بغزو عدرا العُمّاليّة، ولما استشعرت الخطر في عيونهم تظاهرت بالخوف إلا أنهم قالوا: (أنت أول من سيدخل ألست المفتي؟ وماذا سيقول المجاهدون إن ترددت أنت بالدخول؟ تقدم فإذا هبتَ أمراً فقع فيه فإن شدّة توقّيه أعظم مما تخاف منه).

- والآن أين أنت؟ وليد هل قتلت أحداً ما؟ إيّاك أنْ تكون قد فعلت؟

- لا لا لم أفعل، وأنا مختبئٌ في دكان أبي جمال أتظاهر بحرقه.

- مختبئٌ بالدكان وتتظاهر بحرقه! اخرج واردع المجرمين عن القتل والإجرام.

- لا أستطيع... لا أستطيع.

- ألو ألو ألو.

ظل المجتمعون مشدودين بحواسهم كافة، فلم أشأ أن أقطع لهم تركيزهم، فأومأت لهم بمتابعة الاتصال الثاني.

- ألو وليد أين أنت؟ قف في مكان التغطية.

- (باكياً متحسراً) أنا هنا أنا هنا.

- وليد، وليد هل وصلتم إلى الساحة الرئيسة؟

- أيّ ساحة تقصد؟ كل الساحات صارت رئيسة لتحويم الموت!؟ أنا لا أصدق عيني، ما لا يخطر على بال الشياطين يحدث الآن! القتل كيفي بإشارةٍ صغيرة من ملثمين أظنهم ممن انضموا لنا تُقتل عائلات كاملة! التكبيرات في كل مكان ومن كل مكان وكلّ تكبيرة تشهد على نفور الدم من أحد السكان المذبوحين! ركلُ الرؤوس لا قيمة له! سُوقُ النساء العاريات

وجلدهنَّ في الشوارع أو اغتصابهن تحت قوة السلاح مع قهقهات الإجرام الذي لا حدود له! حتى الأطفال... الأطفال يا علي.

- لمَ تقطع كلامك؟ تكلم، تكلم ، هل اعتقلتم الأطفال؟

- يا ليت فعلنا هذا فحسب.

- أقتلتموهم يا وليد؟ هؤلاء أطفال يا وحوش!

- يا ليت يا علي، يا ليتهم اكتفوا بقتلهم.

-يا ليتهم اكتفوا بقتلهم!! لعنك الله ولعنهم هل مثلتم بجثث الأطفال؟

- لا تشملني بهذه اللعنة، أنا بريءٌ منهم ومن أفعالهم، أنا لا أفعل ذلك، لقد أحرقوا الأطفال في الفرن وهم أحياء وهم أحياء يا علي! وضعوهم في بيت النار!

- ويلكم من نار الله الكبرى، ويلكم من سعيره الذي لا يُطفئ، أيّ وحوشٍ أنتم؟

- لقد وصلوا... أما أنا.

- أما أنت! أما أنت ماذا تفعل؟ الحق بنايتنا، الحق أهلنا.

- بنايتنا!! أهلنا!! ألم تقل إنهم غادروا؟

- غادروا... غادروا... لكن حيّان يبات في منزلنا وعائلتَيْ السيد نزار وعبد السلام لم يرحلا... تصرّف بسرعة.

لينتبه الجميع أرجوكم بعد أن مضى على مكالمتي هذه عشرون دقيقة، وصلتني هذه الصورة وبعدها حصلت على التفسير، أنا آسف المنظر مؤلم جداً ولكن لا بد من مشاهدته.

تقدمت ريم باتجاه شاشة العرض وبدأت تتلمسها، بينما بدأت الصورة تتكسر على ظهرها وشعرها إذ وقفت مكان الإسقاط تماماً، ثمّ جلست القرفصاء لتمدّ أصابعها باتجاه لوحة مكسورة الإطار، متشظية الزجاج، تستطيع أن تقرأ بعض ما كُتب عليها وخاصة من طرفيّ التشظي (قال المسيح: دعوا الأطفال... هؤلاء ملكوت الله) الصورة مأساوية لصيدلية مكسرة الزجاج، وبقايا نار وأدخنة، وفي الأسفل أشياء مرمية ومخربة مع قطرات الدم المنثورة في كلّ مكان، هذا غير البقعة الرئيسة اليابسة!

البكاء الصامت عاد إلى العيون، هذه الدماء غالية، كانت يوماً محلاً للحب وللرحمة، وأصبحت الآن دلالة على تصرّفٍ وحشي لا يُقارن به تصرّف الوحوش!

بعد مهلةٍ قصيرةٍ، سمحنا فيها للعيون بالبكاء، عدتُ لإكمال قصتي فأنا الآن في الفصل الأخير.

- حسناً ليبقى الجميع معي، رحم الله الشهداء كافة، بعد أن أرسل وليد لي هذه الصورة طار صوابي، وبقيت لأكثر من ساعةٍ ونصف أحاول طلبه على الخط الخليوي وفي كل مرة كان هاتفه يرنُ عميقاً في أذني، ثقيلاً على قلبي، ولا يرد، لم أتجاسر على الاتصال بأيٍّ منكم، تملّكني الخوف من وجود أحدكم هناك إلى أن اتصل حيّان بي وأخبرني بوجوده في بيتنا، هنا اشتعلت النار في قلبي، ولم أجد بُداً من إرسال رسالة إلى وليد علّه يقرؤها، ويتصرف بما يُمليه عليه الضمير، فهو الشخص الوحيد القادر على التصرّف في هكذا ظرف، وليقرأ الجميع الرسالة، فقد احتفظت بها على أرشيف رسائلي منذ ذلك الوقت.

- وليد ألهذه الدرجة شغلك قتل السيدة جنان؟ حسناً في بيتنا رجلٌ يُدعى صهرك حيّان، اذهب وانشغل بقتله عن إنسانيتك.

- وماذا كان رده؟ ماذا تصرّف؟

- اتصل بي على الفور،ملهوفاً ومصعوقاً!

- ألو ... ماذا كتبت يا علي؟ حيّان هنا في عدرا العُمّاليّة!

- نعم... ومعه بندقية، ويحاول بشتى الوسائل تأمين البناية من طابقنا، لقد أخبرني بصعوبة الموقف وخاصة أنّ السيد نزار وعائلته بالكامل موجودة في بيتهم.

- السيد نزار وعائلته أيضاً!؟ يا ويلي يا ويلي، سأحاول أن أتصرف بسرعة وداعاً.

- لحظة إن كان تصرفك كما تصرفت مع السيدة جنان فابقَ مكانك؟ لا أريدهم أن يموتوا مقهورين.

- هل جننت يا علي؟ أتظن أنني قاتل السيدة جنان؟ والله لقد اتجهت إلى الصيدلية فور دخولي الإجباري، لم يخطر ببالي أحدٌ غيرها بعد أن أخبرتني بسفر أهلنا، لكنني لم أوفق بالحضور في الوقت المناسب، لقد وصلت متأخراً جداً، حيث كانت الصيدلية كما رأيت في الصورة المُرسلة وكان رأس السيدة جنان مفصولاً عن جسدها، لا أوقفك الله مكاني، دمعي مجبورٌ

على التجمد، وأذني مجبورةٌ على سماع التهكم، كانوا يسخرون من كلامها الأخير أتعرف ما قالت لهم في لحظاتها الأخيرة؟ قالت: (ليس كلّ من يقول يا رب يا رب، يدخل ملكوت الله، بل الذي يعمل بكلام الرب ومشيئته، ذاك الذي يخلص) وأما أكثر سخريتهم فقد كانت على آخر جملة قالتها: (يا أبتاه في يدك أستودع روحي).

لقد تظاهرت بالجنون مثلهم، ودخلت إلى الصيدلية، وأخرجت ما استطعت إخراجه من اللوحات المتضمنة لكلام السيد المسيح (ع) ولشهادات الصيدلة، ثمّ حملت الرأس، وجررت الجسد إلى الحديقة الخلفية وانشغلت بدفنهم قبل أن يُمثلوا بالجثة، دعني الآن لقد اقتربت من بنايتنا وداعاً.

بعد ذلك انقطع اتصالي به لأربع ساعات، كنت فيها أحاول الاتصال معكم، ثمّ أحمد الله على انشغال الخطوط باتجاه محافظة اللاذقية، إلى أن اتصل هو بي وليسمعني أخباراً وقعت عليّ وقع الصاعقة، فليستمع الجميع:

- ألو السلام عليكم، أنا آسف يا علي لقد انتصرت همجيتهم على إنسانية ومشاعر الناس في عدرا العُمّاليّة، حاولت

الاتصال مع حيّان كثيراً لكنه لم يرد!؟ ربما لم يسمع رنين هاتفه جراء الاشتباك العنيف الحاصل بينه وبين المجموعة التي حاولت اقتحام البناية المعاندة، أما السيد نزار فقد ردّ عليّ موبخاً:

- أهلاً وليد، أنت معهم يا وليد؟ أهؤلاء هم جماعتك؟ أتريد أن تدخل بيتي لتذبحنا؟ بعد أن كنت تدخله لتلاعب الأطفال أو لتلعب الطرنيب مع الرجال؟ لعنك الله أنت وأمثالك، خسئتم، والله لن أسمح لكم ولذواتكم الضعيفة ولنفوسكم الأمارة بالسوء بالتمتع بمنظرنا أذلاء نستجدي الحياة والعفو عن ذنبٍ لم نرتكبه ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون**﴾. (الشعراء٢٢٧) إيّاك أن تدخل بيتي فيراك الأطفال ويتذكروا وجهك، أرجوك لا تدخل لا أريدهم أن يموتوا وقد طُبعت على مقلة عيونهم صورة الجار وقد تحول من أخٍ كبير إلى كلب مسعور، أنا عاتب على نفسي إذ ضغطت على أبيك يوماً لإرسالك إلى السعودية، ومع ذلك سأعاتبه يوم الحساب فليس من المفروض أن ينتصر تطبُّع المرء على طبعه وتربيته.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ هل أخرجتهم؟ هل تشفعت لهم عند أصحابك؟ حيّان أين حيّان؟

- ماذا حدث؟؟ لقد حدث العجب! فبينما أنا أفاوض متزعم الجماعة لإخراجهم كأسرى دوّى انفجارٌ ضخمٌ هزّ البناية بأكملها، لقد فجر السيد نزار قنبلةً يدوية بنفسه وبعائلته مفضلاً الموت على الأسر والذل«رحمهم الله».

- رحمهم الله، وحيّان؟

- حيّان قاوم حتى أصيب بكتفه فتراكض المسلحون لإلقاء القبض عليه وقتله وكادوا أن يفعلوا لولا أن لحقتهم في اللحظة الأخيرة صارخاً: لا تقتلوه هذا ابن أغنى أغنياء عدرا العُمّاليّة وسنجني من خلال أسره أموالاً طائلة.

- وأين هو الآن؟

- لا تقلق عليه، حيّان معي بأمان، وبعد ساعة سأنقله إلى عدرا البلد، لا تقلق، سأحميه بروحي وقلبي.

- أخشى أنك لا تستطيع حماية نفسك! فمن أدخل غصباً وبالطريقة التي دخلت بها لا أظنه يقدر على شيءٍ مما قلته.

- قلت لك لا تقلق، سأجد له فتوى تُبقيه على قيد الحياة.

- نعم كتلك الفتاوى التي أفقدت الكثيرين حياتهم.

- علي كلّ قناعتي انهارت برؤيا رأس السيدة جنان مفصولاً عن الجسد، لقد كشفت جثامين عائلة السيد نزار الغشاوة عن عيني، لقد أوضحت مقاومة حيّان الطريق الصحيح لي، أنا وصلت إلى الحق إلى النور إلى الندم وعليّ أن أصحح أخطائي الكثيرة، فدعني أفكر في سبيلٍ للخلاص مما أنا وعقلي وروحي فيه، وداعاً.

- بعد هذا الاتصال غاب عني لأيام! وكان غيابه رحمةً من الله لقلبي وعقلي الموجوعين مما ذكره لي وليد كيف لعاقلٍ أن يصدق وجود إنسان أو وجود كائن ما يستطيع إحراق الأطفال في بيت النار الملتهب لفرن المدينة؟ كيف لم يشفع لهم خوفهم وبكاؤهم؟ كيف لم يتخيل أطفاله وأطفال أخوته أو أطفال جيرانه؟

فكرت بذلك كثيراً مع أنني لم أجد في كلمة«حرب» أيّ تبرير منطقي للقتل والذبح ولفصل الرؤوس عن الأجساد ولسُوق النسوة عاريات واغتصابهن إلا أنني لم أشهد لوحشيتهم بحرق

الأطفال مثيلاً في ذاكرة التاريخ الإجرامي! هذا وكحالة مضادة ربما مُعدّلة لهذه الوحشية فكرت في بطولة جارنا السيد نزار حسن هو أيضاً فاق المنطق العقلي بقدرته على التضحية، سما فوق الإنسانية حين ضحى بنفسه، أيّ بطلٍ يكون من يقتل نفسه وزوجه وعائلته مفضلاً بكلّ شهامة وإباء، الموت وقهر الموت على الأسر وذل الأسر؟ أيّ قرابين قدمها السيد نزار حماية لشرفه وشرف العائلة، أليس من حدود للقيم الفاضلة عند الإنسان!؟ عملية نزار مزقت حتى صور الخيال لمقدرة الإنسان وخاصة حين يريد السمو، لم يكن نزار ملاكاً بل إنساناً عادياً طيباً اضطرته لحظة عابرة للزمن، هاربة من سجلات وقائعه إلى التمييز أولاً بين الرضوخ لغريزة الإنسان بحب الحياة والرضوخ لإرادة قدرٍ صعب هو الموت إرادياً واضطرته ثانياً إلى اختيار الموت ترفعاً عن دناءة الأسر، يخطر في بالي تصوّرٌ عن وجود مرتبة «درجة» لا أعرف ما أسميها ولكنها لأولئك الذين نصنفهم بشراً ويقومون وهم في كامل وعيهم وإرادتهم بأعمالٍ تكاد لا تصدّق! آهٍ، يا جارنا كم علينا أنْ نتعلم من موتك أنّ الحياة إباء وأنّ الرجولة لحظة تنسف فيها غرائز الإنسان وتصطفي النفس والروح لترفعهما إلى درجة عليين؟.

ثمّ تواصل معي عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي دردشةً:

- مرحباً علي.

- مرحباً! أين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؟

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لم أقصد تجاهل هذا السلام، لقد خُدعت يا علي، وأنا الآن أشعر بغبنٍ كبيرٍ مورس عليّ وعلى عقلي ووجداني.

- أن تصل متأخراً خيراً من ألّا تصل أبداً، وأمنيتي ألّا تكون يداك قد تلطختا بدم أيّ فردٍ من أفراد البلد.

- هذا ما أحمد الله عليه كثيراً ومع ذلك فلن أسمح لهما بالبقاء هكذا، سألطخهما بدم هؤلاء السفلة، عسى فعلتي تلك تغفر لعقلي تفكيره الخاطئ ولنفسي أمارتها بالسوء.

- إيّاك أن تتصرف بحماقة فتُهلك نفسك بعد أن أنقذتها، بالمناسبة ما أخبار حيّان أيها المنقذ؟

- هو في السجن يتداوى وأنا أدخل عليه بين الفينة والأخرى متلثماً أزوده بما يحتاجه من أدوية، وأطعمة، وشراب.

وأحاول تلقينه ما يجب أن يقوله، ويجيبه، إذا ما تعرض لأيّ سؤالٍ من قبلهم، أنتظر شفاءه بفارغ الصبر لأمكّنه من الهرب فلا تقلق عليه من هذه الناحية، خوفي من أم نائل فهي تتربص بنا جميعاً بعيون ملؤها الريبة ولا تفرق بين أحدٍ منا، لا حيّان ولا أنا ولا أيّ فردٍ من الجماعة الكلّ عندها إرهابيون ومخربون! وهي دائمة السب، والشتم، واللعن.

- وليد إن كان اتصالك بي يضايقك من أيّ ناحية فاختصر واعتنِ بنفسك.

- حسناً... أطمئن على حيّان وطمئن أهلك، وإيّاك أن تخبرهم شيئاً عني فإما أن أعود طاهراً مطهراً من رجسهم ورجس أفكارهم أو لا أعود إلا وأنا مستشهد بين يدي رحمة الله ومغفرته الواسعة، وداعاً.

- طبعاً بقيت حالة حيّان أكثر من شهرٍ حتى بدأ يتماثل للشفاء، وبدأ جلد الجسد المثقوب من جهتين بالاندمال، حينها شرع وليد بوضع خطة للهرب وأول بندٍ فيها تعريف حيّان على الشاب الملثم ، ثمّ تأمين سلاحٍ لكليهما، ثمّ تأمين بعض المواد

سريعة الانفجار، لتفجير مقر المجموعة المسلحة! كان يطبخ عمليته على نارٍ هادئة، ويُعلمني خطوةٌ بخطوة ولطالما رجوته بالابتعاد عن رغبته في الانتقام، لكنه رفض وأبى إلّا أن يفعل مبرراً برد المكر، والغدر، إلى أهله، إلى أن أسرّ لي بساعة الصفر أو ساعة تنفيذ العملية، في ذلك اليوم الذي سبق معرفتكم بمقتل حيّان واستشهاده.

صباح ذلك اليوم اتصل بي هاتفياً، فاسمعوا ما قاله بالحرف الواحد، دققي أرجوك يا ريم فأنت أكثر من عليه الإنصات والتدقيق:

- صباح الخير يا علي.

- صباح الخير يا وليد.

- اليوم سأنفذ ما أخبرتك به، لقد أمنت كلّ شيء ولم يبقَ إلا الوصية، فاسمع أرجوك وأوصلها إلى أصحابها: إن لم أعد إليكم سالماً وأبدؤها بك أنت أيها الصديق، والأخ، والحبيب، اعذرني يا علي لأنني وأدت كلامك على مرّ السنين في قبرٍ حفره شيوخ الوهابية في رأسي وعمّروه من لبنات الكفر، والفسق،

والكره، والكذب، والخداع. اعذر ذاكرتي الضعيفة قليلة الأصل على تأخرها في استرجاع ما مضى من صورٍ رائعة، وأحلامٍ بحرية لا تمحى أبداً، وأوصل سلامي إلى أهلي وأخبر أبي عن عودتي إلى طريق الهداية، أو الطريق التي رباني عليها، وأوصل كلامي إلى ريم وأبيها الغالي عبد السلام وأخبرها أني ما أحببت غيرها قط ولا تمنيت غيرها عروساً لي قط ، وأني دفنت والدتها مع ما وجدته من لوحات وشهادات لأجلها فقط، لترتاح هي فقط، حين تعرف أن التراب ستر لها أمها وحفظ لها ذكريات اللوحات والشهادات، عسى أن يأتي يومٌ ما فتستردها من القبر المؤقت، وليسامحني أهلك، وهديل، وإن شاء الله قريباً يكون حيّان بينكم، والله المعين.

- لا تستعجل يا وليد إن لم تكن الظروف مؤاتية اليوم فغداً قد تكون أفضل؟

- لا عليك اتفقت مع حيّان ولن أتراجع، وخصوصاً أنني لمحت اليوم أم نائل وهي تحدق في وجه حيّان وجل ما أخشاه أن تكون قد تذكرت وجهه أو أنها عرفته ابن المهندس الذي

ترأس معمل الإسمنت، لا ابن أغنى أغنياء عدرا العُمّاليّة وفهمك كفاية! خبرٌ كهذا إذا ما وصل لأذن الجاهل نائل، قد يودي بحياتي، وحياة حيّان، إن لم أتصل بك حتى الصباح فتيقن أنّ العملية قد فشلت، وأننا في عِداد القتلى، أو الشهداء إن شاء الله، أو أنني سأبشرك بنفسي بنجاتنا معاً.

مضت الساعات ثقيلةُ جداً، عددتها دقيقةً دقيقة وأنا جالسٌ وأمامي أجهزة الاتصال الخليوية وشاشة الحاسب المحمول مفتوحة على موقع الاتصال الاجتماعي، في خمودي كلّ توتر الدنيا! في تشتت أفكاري وتبعثرها كان تركيزي فيما سيحدث بأعلى مستوياته! هي لحظة الانتظار، المُرة ببطئها، الحلوة بتوقعاتها، المرعبة باحتمالات فشلها، خمس ساعات كانت كفيلة بشرب الكثير من فناجين القهوة، كانت كفيلة بانهيار أعصابي، ووصولي إلى مرحلة تناول حبتي مهدئ، خمس ساعات كانت كفيلة بارتجافي لسماع رنين الهاتف، وصراخي بأعلى صوتي مع ارتباك بوضع الجهاز على أذني:

- يا رب... يا الله...

- ألو... ألو.

- ألو وليد، ماذا بك؟ تكلم... خذ نفساً وتكلم.

انتظرت لأكثر من دقيقة وأنا أسمع تنفسه السريع والقوي ثمّ أبدأ الحديث معه.

- وليد هل حدث لكما مكروه، تنفسك يرعبني! أرجوك طمئني؟ هل من مكروه؟

- لقد تمكنا من تفجير المقر وقتل من فيه، حتى نائل لم يسلم من الموت، لكننا لم نستطع الهرب، لقد أغلقوا كلّ المداخل والمخارج، حتى تمكنوا من رؤيتنا ودار اشتباكٌ رهيب بيننا، وللأسف فقد أصيب حيّان بعيار ناري في كتفه الأيسر وأظنه استشهد! لقد سحبته لعشرات الأمتار، وأنا الآن مختبئٌ خلف أحد البيوت الزراعية، حيّان لا يجيبني ولا يتنفس، اعذرني لقد فشلت في إنقاذه، سأحاول الهرب من هنا كي لا يشاهدوا جثمانه، فيمثلوا به أبشع تمثيل، وداعاً يا علي.

- لحظة... لحظة، أرجوك آخر طلبٍ لي، صورّه وأرسل لي صورته ثمّ تصرّف كما تشاء، سامحك الله على ما ورطت به

نفسك وورطتنا، وليد انتبه إلى نفسك، أنت أخي أيضاً ويعز عليّ فراقك، وداعاً.

لم تمضِ دقيقة أو دقيقتان حتى أخرجني من صدمتي رنين الهاتف مُخبراً إيّاي بوصول رسالة مصورة، شردت عيناي بها باكيةً لأكثر من ساعة وتوقفت برنة اتصال والمتصل هو وليد مسحت دمعي وتفاءلت خيراً.

- ألو... أهلاً وليد، الحمد لله على السلامة.

- الحمد لله على السلامة!!؟ هذا الرقم من روسيا، أليس كذلك؟

- من أنت؟ أين وليد؟

- لقد فَطِسَ صاحبك، أنت مُدبر العملية التي قام بها هذا الحقير؟ لقد نال جزاءه جراء ما اقترفت يداه، وانتقاماً للشهيد البطل أمير عدرا البلد الشهيد نائل رحمه الله، وأناله الجنة ثواباً، وحسن مستقراً، إما أنت فسنطالك ولو كنت في سابع أرض، أو سابع سما.

- أنا واثقٌ أنكم لم تستطيعوا اللحاق به، وأنه تمكن من الهروب مثلما تمكن من تفجير مقركم، أنتم مجموعة من الأغبياء،

ومن السهل على شاب يحمل رأساً ذكياً كوليد أن يضحك عليكم، وينفد بجلده بعد أن قتل زعيمكم الكافر نائل.

- صحيح رأسه كبير، وثقيل، ولذلك اضطررنا إلى إراحته من حمله، وسأرسل لك صورةً لهذا الذكي، ولرأسه، لتعرف أيّ الرجال هم أولئك الذين تعتمد عليهم أيها الملحد.

- وهل أرسل لك الصورة؟

- نعم يا أبا الوليد، أرسل الصورة.

- ولماذا لا ترينا إيّاها؟

- صور الشهداء ليست للتداول، لقد استشهدا وانتهى الأمر، وليس علينا الآن إلا الترحّم عليهما وقبول الوضع كما هو، أتمنى أن أكون قد حققت الغاية من جمعكم؟ وأتمنى أن يكون الجميع قد عرف الآن لِمَ علقتُ صورة وليد في خيمة العزاء؟ و لمَ تقبلتُ التعازي فيه كما تقبلتها بأخي حيّان؟ لقد عاش وليد حلماً جميلاً ومات شهيداً! ليبقى كما عاش حلماً جميلاً، رفضت طبيعته كلّ الأساليب لتحويله إلى كابوسٍ لعين، رفضت تربيته أن يبات في أحضان الظلام كشيطانٍ لئيم، أبت

سوريته التغيير والتبديل بما تهوى الأفكار السعودية الوهابية، فدفع حياته ثمناً لذلك، خطؤه كان تجميعاً لأخطائنا جميعاً، الأهل والجيران والمجتمع والمسؤولين، واستشهاده كان تجميعاً لنوايانا الطيبة جميعاً، الأهل والجيران والمجتمع والمسؤولين.

- بارك الله بك، لقد أوفيت وأجزيت.

أدت ريم إشارة الصليب، دامعة العينين ثمّ قالت:

- سامحني الله على ما أخطأته بحق وليد، وأثابه الرب على ما قام به من ستر جثمان أمي بدفنها تحت تراب الحديقة، بالفعل كما قال يسوع الرب (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله) سأبقى ممنونة له ولذكراه طيلة الحياة إذ خلَّص جثمانها من براثن حقدهم، ولولاه لمثلوا فيه أشنع تمثيل، لعنهم الله.

- أما أنا يا ولدي، فلأني كنت في الوقت ذاته أم علي وأم وليد، فقد عرفت قبلكم أن وليد لن يفعل إلا ما يُمليه عليه الضمير الحي، أنا ربيته كما ربيتكم، ولم تتزعزع ثقتي به لحظة، أنا أربي إذاً أنا أعرف كيف سيكون أولادي، رحمهما الله وكان في عوننا جميعاً.

عندما دخلت غرفتي، انتابني شعورٌ غريبٌ بالراحة وكأنني أزحتُ جبلاً كبيراً عن كاهلي، ولأول مرة منذ زمنٍ طويل أغفو بسرعةٍ قياسية مقارنةً بتوقيت إغفاءاتي المُعتادة، لأستيقظ بنشاطٍ ملفتٍ وحيوية هائلة، أرتدي لباسي الرياضي الكامل وأخرج من الدار لأفاجأ مفاجأة سارة برؤية المريضين بانتظاري.

- لقد تأخرت يا ولدي، ألم تسمع بالمثل الإنكليزي الذي يقول: (العصفور الذي يستيقظ مبكراً يلتقط الدود)؟

- بلى سمعت بهذا المثل من قبل، ولكن لم أسمع بعجوزين أهملا الرياضية عمراً طويلاً والآن يحاولان تجديد شبابهما، هل في الأمر سر؟

- لقد قلت لأبيك (لما شَابْ أخذوه ع الكتّاب) ولم يقتنع هيّا لنبدأ رياضة المشي، أنا غيرُ مستعجلٍ فلا تجبراني على الإسراع، إن شئتما أنْ تسبقاني فافعلا أنا أريد أنْ أُجري بعض الاتصالات مع أهالي قريتي لأتفقد أحوال بيتي مع وقف التنفيذ.

لم نسبقه كثيراً حين تجمدّ! وكأنه يسمع صوت صاعقة في أذنه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- خيرٌ إن شاء الله يا أبا الوليد؟

- خير!؟ ومنذ متى يأتي الخير من هؤلاء السفلة؟ لقد فجّروا بيتي يا أبا علي! فجروه رداً على ما فعله ولدي! حتى همجيتهم غريبة عن همجية المجرمين، لقد طال حقدهم حجارة بيتي الذي شقينا العمر كلها في سبيل بنائه.

- فداك يا أبا الوليد، بيتنا كبير ويتسع لكم ولغيركم.

- بارك الله بكم، أنا لا آسف على البيت (إذا راح الغالي لا أسف على الرخيص)، قتلوا ولدي من قبل وقطعوا رأسه واليوم فجروا بيتي، وغداً الله أعلم إلامَ ستطال يد غدرهم وحقدهم؟! أكلُّ هذا لأننا تمسكنا بسوريتنا بحضارتنا؟ أمن الممكن أن يتواجد إنسان ضد الحضارة؟ أيّ عقيدةٍ تلك التي يؤمنون بها؟ لعنهم الله ولعن عقيدتهم الوهابية القذرة.

- برأيي أن نكمل مشوارنا، اِنسَ الأمر كتب الله عليكم كأسرة أن تبقوا هنا، كما كتب أن نُدمج معاً طيلة الفترة التي قضيناها في عدرا العُمّاليّة، أنا وأنت واحد يا أبا الوليد، أنسيت أنَّ كلينا يملك كليةً واحدة وأنَّ كلينا نُشكّل شخصاً واحداً

كامل الصحة والبنية! وأعتقد أنّ ما يجمعنا من حياةٍ عشناها سوياً ومن قرابةٍ أحدثها حيّان وهديل ومن حبتي المساء اليومية وحتى من مستقبلٍ سيُحدثه الحفيد القادم أقوى وأمتن بكثير من موانعهم الإجرامية لالتقائنا.

ما إنْ قررنا أن نسير على بركة الله حتى رنّ جوال أبي، وإذا به ينظر إلى اسم المتصل بعيونٍ مستغربة ومتسائلة.

- خيرٌ إن شاء الله؟ من المتصل؟

- شيءٌ غريب! أمُ نائل بائعة الحليب! ماذا تريد؟ حسناً سأجيب، مع أني أعتقد أنه اتصالٌ خاطئ.

- ألو، نعم، أهلاً وسهلاً... الحمد لله... نعم نعم، معي ولدي علي... ماذا تريدين محادثته؟ حسناً حسناً.

ناولني أبي الجوال معلقاً:

- تريد محادثتك! لا تذكر لها سيرة أبي الوليد وعائلته.

- ألو... أهلاً وسهلاً صباح النور:

- هل أنت علي؟

- طبعاً أنا علي!

- أعطني علامة، أتذكرني جيداً؟ مع من كنت آتي إليكم؟ وما صفته؟

- يا خالة، أنا علي وكنت تأتين إلينا برفقة ولدك نائل، صاحب الشعر الأحمر.

- أحسنت، أنت علي، وولدي - عفا الله عنه - توفي في التفجير.

- عفا الله عنه ورحمه على قدر ما يستحق.

- اسمع يا ولدي ابتعد قليلاً عن والدك، أنا طلبت الاتصال بك لأني أعرف أنّ والدك مريض وقد لا يحتمل الصدمة، أخوك حيّان ليس ميتاً، هو بمأمن عندي وأنا أعتني به جيداً.

- ماذا تقولين؟!

- اخفض صوتك، ما سمعته مني كلامٌ صادق، لقد عثرت على أخيك مسجىً خلف إحدى البيوت الزراعية، وأنا هائمةٌ على وجهي، بعد أن تأكدت من موت ولدي بالتفجير، فسحبته إلى أرضنا حيث مستودع الأعلاف، كانت أصابته بالغة ولم أعتقد أنه سيحيا أبداً، لكنها إرادة الله... ألو هل أنت معي؟

- نعم، نعم أنا معك.

- لم تصدق ما أقوله! حسناً بعد ربع ساعة سأجعله يتصل بك ، أنا الآن ذاهبةٌ من بيتي إلى المزرعة، ربع ساعةٍ فقط وأصل لتعرف أنني لا أنسى كرمكم ومحبتكم لي، وداعاً الآن لا أريد أن يسمعني أحدٌ من عابري الطريق.

- ما حالكما!؟ كلما تحدَّثَ أحدكما على الجوال أصابته الدهشةُ والاستغراب!

- مستحيل ما تكلمت به هذه المرأة!! أبي من أخبركم باستشهاد حيّان؟

- لمَ هذا السؤال؟ برقيةٌ صدرت من قائد لوائه، أخبرني بها الضابط المسؤول عنه مباشرةً، في البدء أخبرني بأنه مفقود، ثمّ اتصل بي وأخبرني باستشهاده.

- وأمُ نائل، تخبرني بأنه حيٌ يُرزق! ويتداوى عندها في المزرعة، حيث الإسطبل ومستودع الأعلاف.

- ماذا تقول؟

- مثلما سمعتما، المرأة وجدت حيّان حيث تركه وليد خلف إحدى البيوت الزراعية، ولما عرفته سحبته إلى مزرعتها واعتنت به.

- هذا مستحيل!

- وأنا قلت في نفسي ذلك!

- ربما تحاول تهييج أحزاننا على أولادنا انتقاماً لولدها المقتول بأيدي وليد وحيّان؟

- في صوتها شيءٌ من الصدق، هذه امرأةٌ صادقة، لم تكذب طيلة حياتها، ولم تغش، أليس كذلك؟

- نعم كذلك،

- إذن، سأجلب الكراسي والطاولة وسننتظر هنا، وعدتني بإجراء اتصالٍ معه بعد ربع ساعة.

الرجلان لم ينطقا حرفاً واحداً، حتى إنهما لم يتشكرا ريم التي شاهدتنا من الشرفة فصنعت ركوةً من القهوة وأتت بأربعةِ فناجين وكرسي لها، أومأتُ لها بالجلوس، فجلست صامتةً وحذرةً من إصدار أيّ صوت، وبينما هي تصب القهوة رنّ جوال أبي فالتقطته على الفور:

- ألو... أهلاً خالة... أهلاً.

- لقد وصلت يا علي تحدث الآن مع أخيك ولكن أرجوك لا تطل الحديث معه ما زال متعباً، الآن مكالمتك معه ليطمئن

قلبك وقلب أهلك إنه بأمانٍ عندي وفيما بعد ستتكلمون معه على راحتكم، اتفقنا؟

- نعم، نعم اتفقنا، أسرعي أرجوك أنا لا أصدق

- ألو...

- ألو حيّان! هذا أنت؟ كيف حالك؟

انتزع أبي الجوال من يدي وصرخ:

- ألو حيّان... حيّان.

تجمدّت حباله الصوتية، وتناوبت دموعه الغزيرة على الحديث الروحي الصامت.

أعدت الهاتف إليّ وتحدثت معه من جديد.

- ألو، حيّان أنت بخير؟

- إن شاء الله، لقد لطف الله بي وأرسل أم نائل للعناية بجرحي كيف حال أمي؟ لِمَ صمت أبي؟ كيف هي حال هديل والجنين وعمي وزوجة عمي؟ هل الجميع بخير؟

- بخير، بخير لا تقلق اعتنِ بنفسك وأنا سأجد طريقةً ما للتواصل معك ومع أم نائل، عُد أنت إلى راحتك واطمئن لا تقلق أبداً، أعطني أم نائل.

- ألو... هل تأكدت يا ولدي، أخوك بخير، وأنا سأبقى معتنيةً به حتى اللحظة التي أوصله إليكم بخيرٍ وسلامة فلا تقلقوا.

- خالة أرجوك إنْ كان هذا الوضع يتطلب منك أيّ شيء فنحن جاهزون، فقط أخبرينا كيف سنوصل إليك ما تحتاجينه؟ أو عن طريق من؟

- أحتاج إلى رحمة الله وإلى الصبر على ما ابتلاني به من فقدان ولدي - سامحه الله ورحمه - وعن طريق دعائكم لي بالصبر والسلوان، كلّ ما أريده أن أجازى عن عملي هذا بنزول الرحمة على ولدي، وداعاً يا ولدي يبدو أنّ دمعي لن يسمح لي بإكمال المكالمة، سأحدثكم كلما سنحت لي الفرصة.

يا إلهي ما هذه المرأة؟ أيُعقل أن تتواجد امرأةٌ مثلها في هكذا زمن؟ وهكذا وضع؟ وهكذا بلد؟

- هذه رحمة الله يا ولدي، لقد وسعت رحمته كلّ شيء.

- صدقت يا عم، وسعت رحمته كل شيء، الحمد لله... الحمد لله.

توافد البقية كلٌّ يحمل كرسيه، وبأجواء من المباركات وصلت أمي أخيراً لتشاهد بعينها ريم وهي تحتضن بذراعيها رقبتي وتقبّل وجهي سعيدةً وفرحة.

- وصلت أم العريس.

أعادت أمي نظرها إلى العم أبي الوليد مستفسرةً بتعابير وجهها عن معنى الكلمة وعمّا شاهدته من احتضان ريم لي وتقبيلها لخدّي.

- أم العريس؟ خيرٌ إن شاء الله؟ زوجتم الولد من ورائي.

- لا يا أمي هم يقصدون العريس الحقيقي (حيّان) نعم نعم حيّان... لا تستغربي حيّان ليس ميتاً! حيّان حيٌّ يُرزق وهو في مزرعة أم نائل... أم نائل بائعة الحليب... تتذكرينها طبعاً.

- حيّان حيّ!!؟

فاضت عيونها بالدموع ثمّ تمايل رأسها قليلاً وأغمي عليها وعندما أفاقت... راحت تتأكد من ابتسامات الرجال ودموع النساء أنّ ما قلته صحيح وما هو كلام مواساة، الفرحة كبيرة وأكبر من قدرتها وقدرة قلبها على الاستيعاب، مسكينةٌ أمي لم

تكن قادرة على استيعاب الحزن فأودى بها إلى عالم الشرود، والآن الفرح يودي بها إلى حالة الإغماء.

عمّ الخبر بسرعة النار في الهشيم وتوافد الأقربون والجيران يباركون ويهنئون بسلامة حيّان وإنْ كنا على وعدٍ بإيصاله سالماً.

جذبني خالي من معصمي إلى جهةٍ غير بعيدة ليسألني سؤالاً ملؤه الشك والريبة:

- هل تصدقون بأن بائعة الحليب ستوصل حيّان سالماً غانماً؟ وخصوصاً إذا ما عرفت إنه من فجّر مقر ولدها؟ هل طلبت أموالاً مقابل ذلك؟ من أين؟ إلى أين؟ حتى تسعف امرأة من عدرا البلد شخصاً من اللاذقية وفوق ذلك ضابط في الجيش العربي السوري؟ سمعت أنها لم تطلب شيئاً أليس وارداً أن يكون ذلك كميناً لتنتقم به من الجميع؟

- لا يا خالي أم نائل أصيلة، وليس بعينها كلّ مال الدنيا، أم نائل سوريّة بجدارة وأكبر مما تُلمح له بكلامك، أم نائل امرأةٌ تشبه أمي في تربيتها لوليد وهديل، وتشبه أبي وأبا الوليد في تعاملهما الأخوي، وتشبه كلّ سوري تكابر على الجراح، والآلام،

وتمسك بحضارته، وبتاريخه ضد كلّ ما هو غريب، ومثير للشك والريبة، أعتقد أنك فهمتَ عليّ؟ أليس كذلك؟

- نعم، نعم... أوصلَه الله بخير وسلامة أنا ذاهب هل تريدون شيئاً؟ أنا جاهز لكلّ شيء.

- شكراً يا خال لم تطلب امرأةُ عدرا البلد شيئاً منا حتى نطلب من غيرنا، ثمّ إن العم أبا وليد وضع كلّ أرصدة ولده المرحوم تحت تصرّفنا، شكراً لك.

في اجتماع حبة المساء، طغت فرحة الخبر على العيون، والتصرّفات، والقلوب، أمي كادت تتراقص في حركتها، وقد صنعت لنا عشاءً فاخراً، لم أذق أطيب منه في حياتي، وهديل أتبعت العشاء بركوةٍ كبيرة من القهوة، وقبل أن نبدأ بشربها وقف العم أبو وليد وقال:

- الحمد لله على سلامة حيّان ولدكم وصهري الغالي وإن شاء الله تتم عملية إيصاله بخير وسلامة، وإلى أن يأتي أريد أن أطلب طلباً صغيراً منكم (هل تسمحون لي ببناء بناية كبيرة بطوابقٍ أربعة على أراضيكم؟ أقصد على أرضكم)؟

- ولِمَ أربعة طوابق يا عماه؟

- الثاني لصهري ونحن سنسكن مكانه، والثالث لك، والرابع لريم وأبيها.

- هل نسيت الطابق الأول؟

- لا لم أنسَ، الأول سيكون للعجزة (لأبيك وأمك) ولمحبيّ العجزة منكم ومن أهالي القرية، به سنجتمع اجتماعات قهوة الصباح واجتماع حبة المساء الجميل، وبعد عمرٍ طويل سيكون هذا الطابق لحفيدنا القادم بإذن الله، أتوافقون؟

- إذا كانت القلوب قد وافقت على ضمك أفلا توافق الأراضي على بناء بيتك عليها؟ و خاصةً أن الأرض تتبع القلب فيما يحب ويرضى، أنت والسيد عبد السلام أخوة ومن محاسن القدر أن يسكن الأخوة بجانب بعضهم أو في بنايةٍ واحدة مثلما كنا في عدرا العُمّاليّة، ألا توافقونني الرأي؟

- طبعاً... نعم... طبعاً... نعم.

صفوان محمود إبراهيم

- مواليد اللاذقية - سنجوان ١/١/١٩٧٨م.
- التحق بالكلية الجوية بعد نيله شهادة الثانوية العامة عام ١٩٩٦م، وتخرج منها ضابطاً طياراً عام ١٩٩٩م، كان لاستشهاد أخيه الصغير حيان في الرقة أثر عميق في توجهه إلى الكتابة، والتعبير عن تجربته القاسية ومعاناته في الحرب الظالمة على وطنه.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

الرواية الأولى للكاتب صفوان إبراهيم، وهي محاولة لرصد التحوّلات الاجتماعية والفكرية والنفسية لعدد من الشخصيات التي كانت تعيش بوئام وسلام في مدينة عدرا العمالية، وما تركته الحرب العدوانية من آثار سلبية أو إيجابية على حياتها.

ومن أجواء هذه الرواية: «لن أسمح لكم ولذواتكم الضعيفة ولنفوسكم الأمارة بالسوء بالتمتع بمنظرنا أذلاء نستجدي الحياة والعفو عن ذنبٍ لم نرتكبه، إيّاك أن تدخل بيتي فيراك الأطفال ويتذكروا وجهك، أرجوك لا تدخل، لا أريدهم أن يموتوا وقد طُبِعَت على مقلة عيونهم صورة الجار الذي تحول من أخٍ كبير إلى كلب مسعور».